الأستاذ الدكتور
أحمد مصطفى أبوالخير
الخبير الدولي في اللغة العربية

دستور اللغة العربية

الحلقة السادسة
٦

دار الأصدقاء بالمنصورة
١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م
الناشر : المؤلف

abu_elkher@yahoo.com
01227202286

المادة الخامسة والأربعون
{٤٥}

لا يلعب الحرف دورا ثانويا في الجملة العربية خاصة في الدلالة ، حروف الجر مثال ساطع فاقع على هذا.

دائما أردد عبارة :

ليس شيوع الفكرة دليلا على صحتها ، بل على العكس ، كلما كانت الفكرة شائعة كانت خاطئة ؛ فإن أكثر الأفكار شيوعا أكثر خطأ.

بدهية يجب أن نلتفت إليها دوما ، ولكن كم من البدهيات نتجاوزها في حياتنا ، أو قل : كم من التضحيات علينا أن نقدمها قبل أن نصل إلى ما هو بدهي من أبده البدهيات.

انظر إلى مقولة أحد المحللين اللبنانيين يقول عن بلده : (لبنان ليس حرفا في السياسة العربية أو الدولية ، بل هو فعل مهم فيهما).

لقد استقر في ثقافة العرب أن الأساس في اللغة وفي الحياة الفعل والاسم ، وليس الحرف ، وهذا غير صحيح ؛ إذ الحرف له دور في دلالة الجملة العربية ، وفي تغيير معناها ، بل وفي تغيير معنى الفعل فيهما ، خاصة حرف الجر ، هذي أمثلة عجلى قبل أن ندخل ساحة الموضوع وعرصاته :

١ـ ألحد إلى / ألحد عن : في المعجم الوسيط : (ألحد السهم عن الهدف ، مال عنه ، ويقال : ألحد إليه ، مال إليه) حرف الجر (عن) صرف المعنى إلى (مال عن) والحرف (إلى) جعل المعنى مال ورغب.

٢ـ صَخَدته الشمس : أحرقته ، صَخَد النهار استدحر ، فإذا دخل حرف الجر (إلى) اختلف المعنى ، تقول : صَخَد إليه صخودا بمعنى استمع.

وفي اللهجة المصرية ـ في محافظة الشرقية ـ (الصهد) بالهاء شدة الحرارة ، من الشمس أو من غيرها، ولعل الخاء تطورت إلى (هاء) بسبب قرب المخرج، إذ الهاء حنجرية، والخاء من أقصى اللسان مع أقصى الحنك، كما أن كلا الصوتين احتكاكي مهموس.

٣ـ في لسان العرب [١] : سعى إذا عدا ، وسعى إذا مشى ، وسعى إذا عمل ، وسعى إذا قصد ، وإن كان بمعنى المضي عُدّي بـ (إلى) وإذا كان بمعنى العمل عدى باللام ، فالسعي القصد وبذا فسر قوله تعالى : (فاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللَّـهِ) أي : اقصدوا وتوجهوا ، وليس من السعي بمعنى العدو كالسعي بين الصفا والمروة ، أي العدو بينهما ولذا قرأ ابن مسعود : (فامضوا إلى ذكر الله) يقول ابن مسعود : (لو كانت من السعي ـ العدو ـ لسعيت حتى يسقط ردائي.

٤ـ صفقته على رأسه ـ من باب ضرب ـ ضربته باليد ، وصفقت له بالبيعة صفقا أيضا ضربت بيدي على يده ، وكانت العرب إذا وجب البيع ضرب أحدهما يده على يد صاحبه ، ثم استعملت كلمة (الصفقة) في العقد ، أما الفعل بدون حرف جر ، مثل : (صفقت الباب صفقا) أغلقته وفتحته ، فهي من الأضداد [٢].

(1) مادة (س ع ى).
(2) المصباح المنير ، مادة (ص ف ق).

على أية حال فإن النحاة قد أحسنوا صنعا حين ربطوا الجار والمجرور بالفعل كيف ؟ يقول ابن يعيش [1] (ت٦٤٣هـ) : ليس في الكلام حرف جر إلا وهو متعلق بفعل ، أو ما هو بمعنى الفعل في اللفظ ، أو التقدير ، أما اللفظ فقولك : انصرفت عن زيد ، وذهبت إلى بكر ، فالحرف إلى متعلق بالفعل الذي قبله ، وأما تعلقه بالفعل في المعنى فنحو قولك : المال لزيد ، تقدير : المال حصل لزيد ، وكذا : زيد في الدار ، تقديره : مستقر في الدال ، أو : يستقر في الدار ، فثبت بما ذكرناه أن هذه الحروف إنما جيء بها مقوية وموصّلة لما قبلها من الأفعال ، أو ما هو بمعنى الفعل إلى ما بعدها من الأسماء.

ومن ناحية أخرى فقد فصل النحاة معاني حروف الجر - وغيرها - حرفا حرفا إلا أنهم أو غيرهم من القدماء - بل والمحدثون - لم يشيروا إلى دور هذي الحروف في تغيير معنى الفعل ، أو الاسم الذي يعمل عمل الفعل ، ومن ثم قمنا بدراسة تأثير حرف الجر في تغيير معنى الفعل في القرآن الكريم [2].

إن آية واحدة - أو جملة عربية أو بيت شعر - قلما يخلو من حرف جر أو أكثر ، بل إن آية واحدة ، هي أقل من سطرين تجد فيها من حروف الجر ستة ، هي قوله تعالى : (وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [3]).

تجدر الإشارة إلى أننا لا نقصد ظاهرة (التضمين) بمعنى أن الفعل ضمن معنى آخر ، بل إن هذا التضمين إن هو في نظرنا إلا صورة من دور حرف الجر في تأثير

(1) شرح المفصل ، القاهرة (بدون تاريخ) ٩/٨.
(2) عنوان الدراسة : (أثر حرف الجر في دلالة الفعل في القرآن الكريم ، دراسة على تفسير ابن كثير) ٢٠٠١م.
(3) ٢٣ البقرة.

حرف الجر في تغيير معنى الفعل ، كيف ؟ في المثال دليل على المقال ، أسرد على القارئ مثالين جئت بهما من تفسير ابن كثير :

١- في قوله تعالى : (وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ [1]) قال ابن كثير [2] : (وعداه بعلى ؛ لأنه تضمن تتلو تكذب ، قال ابن جرير : على ههنا بمعنى : في ، أي : تتلو في ملك سليمان ، قلت - أي ابن كثير - التضمين أحسن وأولى.

وأرى أن القصة هنا ليست قصة تضمين ، وإنما حرف الجر (على) هو الذي غيّر معنى الفعل تتلو إلى معنى : تكذب.

٢- (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء [3]) أي : قصد إلى السماء ، والاستواء ههنا مضمن معنى القصد والإقبال ، لأنه عدى بـ [4] على.

وبصرف النظر عن تفصيل الكلام فيما سبق ، فيما يأتي في موضعه ، فإن حرفي الجر في المثالين هما سبب في تغيير معنى الفعلين ، وليس التضمين ، حتى من يقر بهذا التضمين يرى أنه كان بسبب التعدي بـ (على) كما في المثال الأخير بنص كلام ابن كثير الذي نقلناه عنه :

وعلينا أن نقر بما يلي :

إن الأفعال في القرآن الكريم تتوزع بين عدة أضرب ، هي :

١- أفعال تأتي بدون حرف جر ، ومن أمثلته الفعل (تبارك) الذي ورد تسع مرات [1] ، وفي كلها بدون حرف جر ، من أي نوع ، قال تعالى : (تَبَارَكَ اللَّهُ

---

(1) ١٠٢ البقرة.
(2) ١٣٦/١.
(3) ٢٩ البقرة.
(4) ابن كثير ٦٧/١.

رَبُّ الْعَالَمِينَ [2]).

٢- فعل يأتي مرة واحدة : سواء مع حرف جر ، أو بدونه ، فمن الأول قوله تعالى: (هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا [3]) فقد جاء الفعل (أتوكأ) مرة واحدة فقط [4] وذلك مع حرف الجر (على).

وقد جاء الفعل مرة واحدة بدون حرف جر ، من أي نوع ، نحو : (فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ [5]) الفعل (وكز) قد جاء في موضعه الوحيد [6] ، بدون حرف جر.

٣- الأفعال كلها مع حرف جر واحد : وقد يأتي الفعل في مواضع عديدة ولكن مع حرف واحد فقط من حروف الجر ، وهذا ما يتكرر كثيرا جدا في القرآن الكريم.

فالفعل (حاق) وقع تسع مرات [7] ، مثل (فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم ... [8]) وكلها مع حرف الجر (الباء) فقط ، وكذا مضارعه (يحيق) في موضعه الوحيد ، قد جاء معه نفس الحرف (وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إلا بِأَهْلِهِ [9]) برغم أسلوب القصر في الآية.

٤- أفعال جاءت مع الظرف الجار فقط [1] : فقد جاء الفعل (حال) مع الظرف (بين) وكذا مضارعه (يحول) والمبني للمجهول (حيل) ، قال تعالى : (وَحَالَ بَيْنَهُمَا

(1) عبد الباقي : المعجم المفهرس ، انظر ص١١٨.
(2) ٥٤ الأعراف.
(3) ١٨ طه.
(4) مجمع اللغة العربية : معجم ألفاظ القرآن الكريم ، انظر : ص١١٩٨.
(5) ١٥ القصص.
(6) مجمع اللغة العربية : معجم ألفاظ القرآن الكريم ، انظر : ص١١٩.
(7) عبد الباقي : المعجم المفهرس ، انظر ص٢٢٢.
(8) ١٠ الأنعام.
(9) ٤٣ فاطر.

الْمَوْجُ [2] ـ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ [3] ـ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ [4]).

ولا شك أن كل نموذجٍ من هذي النماذج السابقة أو الأضرب قمنة بدراسة تعكف على كل نموذج منها تجلي غوامضه ، وتضيء جوانبه ، لكن هذي المادة من دستور لغتنا تختص بالأفعال التي جاءت أكثر من مرة ، جاء معها أكثر من حرف جر ثم الأهم من هذا كله أن يتغير معنى الفعل ، وبسبب حرف الجر.

وقد وجدت من هذا النوع الأخير أقل من عشرين فعلا في القرآن الكريم ، في كل واحد منها يتغير معنى الفعل بسبب حرف الجر ، نذكرها الآن في صيغة الماضي غير المسند لأي ضمير ظاهر ، وهي : (بخس ـ ابتغى ـ ترك ـ جاهد ـ أخلد ـ حمل ـ ذرأ ـ رغب ـ سكن ـ شد ـ ظاهر ـ غرّ ـ فتح ـ نطق ـ نظر).

وسوف أعطي أمثلة لثلاثة مما سبق ، ومن رام تفصيلا عن الأفعال الأخرى رجع إلى بحثنا السابق الإشارة إليه [5] :

١ـ (نطق) : في سبعة مواضع من القرآن الكريم جاء الفعل غير متعدٍ بأي حرف من حروف الجر ، أو قل : جاء خلوا عاطلا عن أي حرف من حروف الجر ، مثل :

- (مَا لَكُمْ لا تَنطِقُونَ [6] ؟).
- (فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ [7]).

ولكن الفعل جاء متعديا بحرف الجر في ثلاثة مواضع فقط ، هي :

(1) السيد ، الدكتور عبد الحميد : الأفعال في القرآن الكريم ، انظر ٣٩٨/١ ، جدة ١٩٨٦م.
(2) ٤٣ هود.
(3) ٢٤ الأنفال.
(4) ٥٤ سبأ.
(5) أثر حرف الجر في دلالة الفعل في القرآن الكريم ، ٢٠٠١م.
(6) ٩٢ الصافات.
(7) ٣ الأنبياء.

أ - (هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ [1]) هنا حرفا جر (على - الباء) معنى (ينطق عليكم) يشهد عليكم ، إذن تحول معنى الفعل من (يتكلم) إلى يشهد بسبب استخدام حرف الجر (على).

ب- (وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ [2]) وهو كتاب الأعمال ، معنى ينطق بالحق أي : يشهد عليكم بما عملتم.

وعليه فإن الفعل (ينطق) إذا جاء معه حرفا الجر (على - الباء) أو الباء وحدها كان المعنى : يشهد.

جـ- (وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى [3]) وما ينطق ، أي محمد (ﷺ) عن غرض وهوى يلاحظ أن المعنى لم يتغير مع حرف الجر (عن) وإنما تغير مع الآخرين (على - الباء) أو الباء وحدها.

٢- (شد) : جاء الفعل بمعنى (قوى) في خمسة مواضع من مواضعه الستة ، في قوله تعالى : (وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ [4]) أي : ملك سليمان ، قويناه ، ولكنه في الموضع السادس ، أي في قوله تعالى : (رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ... [5]) معنى : اشدد على قلوبهم ، اطبع عليها ، في الآية (كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىَ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ [6]) وفرق بين (قوى) وبين (طبع على) سبب الاختلاف هو حرف الجر (على) في آية (وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ...).

---

(1) ٢٩ الجاثية.
(2) ٢٠ ص.
(3) ٨٨ يونس.
(4) ١٠١ الأعراف.
(5) ٣١ طه.
(6) ٣٥ القصص.

أما حرف الجر (الباء) فلا يغير من معنى الفعل (اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي [1]) ، (قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ [2]) المعنى لم يتغير في حضور الباء الجارة ، تغير فقط مع (على) ليس إلا.

٣- (بخس) : يلاحظ على هذا الفعل ما يلي :

أ - أنه يتعدى إلى مفعولين ، كما في (وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ) هنا مفعولان ، الأول : الناس ، الثاني : أشياءهم ، هذا الجزء من الآية وقع في القرآن الكريم ثلاث مرات ، في الأعراف [3] ، وهود [4] والشعراء [5].

ب- وقع الفعل في القرآن كله في صيغة المضارع فقط ، لم يأت منه شيء في الماضي ولا الأمر.

جـ- جاء الفعل مع حرف الجر في موضع واحد فقط ، هو : (وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً [6]) أي لا يكتم منه [7] شيئا ، وهكذا تحول معنى الفعل (يبخس) من (يُنقص) إلى (يكتم) وكان هذا بفضل حرف الجر (من).

وهكذا اتضح لنا من كل ما سبق تأثير حرف الجر ودوره في تغيير معنى الفعل كما جاء في القرآن الكريم ، ولا شك أن هذا أيضا في غير القرآن كما سبق من أمثلة.

ولا شك أن عوامل أخرى مع حرف الجر كان لها دور في تغيير المعنى ، وهذا أمر بدهي ، إذ الكلمة وحدها لا يكون لها من دور إلا إذا كانت ضمن جملة ما ، في سياق ما.

(1) ٣١ طه.
(2) ٣٥ القصص.
(3) آية ٨٥.
(4) آية ٨٥.
(5) آية ١٨٣.
(6) ٢٨٢ البقرة.
(7) تفسير ابن كثير ٣٣٥/١.

ومن ناحية أخرى فإن الحروف التي غيرت معنى الفعل في الدراسة التي قمنا بها أشارت إلى أن هذي الحروف ؛ هي : (على - في - إلى - من - الباء - اللام) وبهذا الترتيب [1] ، إذ سجلت (على) النسبة العليا ، تلتها (في) ، ثم (إلى - من) وأخيرا (الباء - اللام).

فإذا ما قارنا هذا بورود هذي الحروف في القرآن الكريم كان الأمر منطقيا ، لاحظ :

- (في) وردت في القرآن ١٦٩٢.
- (على) ١٤٣٩.
- (من) ٨٦١.
- (إلى) ٧٣٧.

وفي بعض الأحيان يأتي حرفا جر مع الفعل ، مثل : (على ، في - على ، من - في ، اللام - على ، الباء - الباء ، عن) وهما أيضا يغيران المعنى ، فإذا كان حرف جر واحد فقط يغير معنى الفعل فإن الحرفين أيضا يمكن أن يغيرا ، لكن وجدنا في تيك الدراسة حالات أقل ، إذ التأثير الأكبر عددا كان للحرف الواحد ، وليس للاثنين.

الظرف هو الآخر يمكن أن يغير من معنى الفعل ، كما في قول الله تعالى : (رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ [2]) معنى (افتح) هنا أي : (احكم) والسبب الظرف (بين وبين) أو الظرفان ، وإن كان هذا يحتاج إلى دراسة مستقلة.

---

(1) انظر ص٣٥.
(2) ٨٩ الأعراف.

وإذا كان حرف الجر ـ أو الظرف ـ يؤثر في تغيير معنى الفعل فإن هذا يحدث أيضا مع ما يقوم مقام الفعل (اسم الفعل ـ المصدر ـ المشتقات) ففي قوله تعالى : (قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ [1] عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْراهِيمُ) المعنى غير راض ، في حين نجد المعنى على العكس مما سبق في آية : (إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ [2]) أي : راضون ، وهذا أيضا أيضا يحتاج إلى بحث خاص.

على أنا نختم شرح هذي المادة من دستور اللغة العربية بما يلي :

١ـ يجب ألا يقتصر الأمر في تدريس حروف الجر على الأثر الإعرابي لهذي الحروف ، بل يجب الاهتمام بوظائفها الدلالية أيضا ، سواء للعرب أو غير العرب.

٢ـ إن بعض حروف الجر تقوم في المعنى بوظيفة الأخرى ، فحرف (في) فسر في آية : (وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ [3]) بمعنى (على) ومن ثم يجب أن لا نعجل في تخطيء الناس عند استخدامهم لحروف الجر.

٣ـ حرف الجر الزائد أيضا يحتاج إلى دراسة ، خاصة في دور هذا الحرف الزائد في المعنى ، هل هذا الدور يتمثل في توكيد المعنى كما ذكر ابن هشام [4] ـ مثلا ـ وما حدود هذا الدور ؟.

وهنا يشار أيضا إلى عدم الإسراع بتخطيء مستخدم حرف الجر الزائد ، كما في (جاء بنفسه وبعينه) فإن الباء زائدة في الكلمتين.

---

(1) ٤٦ مريم.
(2) ٥٩ التوبة.
(3) ٧١ طه.
(4) مغني اللبيب ٧٦/٢ ، ١٠٦ ، ١٧٠

٤- ويظهر أيضا عدم دقة الفصل الحاد عند النحاة والصرفيين بين المتعدى بنفسه (المتعدي) وبين المتعدي بحرف الجر (اللازم).

وهذي أمثلة :

- شكرته وشكرت له ، في القرآن الكريم : (رَبِّ [١] أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ - وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ [٢]).
- نصحته ونصحت له.
- ذهبت الشأم ، وذهبت للشأم ، أو إلى الشأم.
- في القرآن الكريم : (فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ [٣] مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا - وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ [٤]).

والآن آن لنا أن ننتقل إلى المادة التالية من دستورنا وما يفتح لنا من شروح عليها وتعليقات.

---

(1) ١٩ النمل.
(2) ٤٠ النمل.
(3) ٣٧ الأحزاب.
(4) ٢٠ الطور.

المادة السادسة والأربعون {٤٦}

الحروف الزائدة في العربية هي الأخرى لها أدوار ووظائف في الجملة العربية على رأسها التوكيد ، وإعطاء مرونة في الجملة العربية ما يؤهلها للشعر.

للوهلة الأولى يرى الواهل الباده أن الحرف الزائد لا وظيفة له في الجملة ، ولا في المعنى ، كلا ، هذا التصور الواهل غير صحيح من بعيد أو من قريب ، أهذا استنتاج ؟ كلا ، بل لدى أقوال علماء العربية الذين يؤكدون بهذي الأحرف الزائدة.

استطرادة قليلة نستأذن فيها القارئ ، كلمة الزيادة في القرآن الكريم لا تعني الشيء الذي لزوم له ولا فائدة ، بل الزيادة تفيد الزيادة في الخير ، وفي الشر ، فقط مجرد الزيادة ، ومن عجب أن هذي الكليمة جاءت في الكتاب الكريم مرتين ثنتين ، إحداهما في الخير ، والثانية في الشر :

- (لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ [1]).
- (إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ [2]).

---

(1) ٢٦ يونس.
(2) ٣٧ التوبة.

فما وظيفة هذي الأحرف الزائدة ومن سمى لها وظيفة ؟ تقصد ابن هشام كما جاء في شروح المادة السابقة ؟ كلا ، أقصد غيره ، مثل ؟ مثل :

١- ابن يعيش [1] : معنى الزيادة التوكيد ، والحروف التي تزاد ، منها : (إن - أن - ما - لا - من - الباء) مثل :

- (ما إن رأيته) أي : ما رأيته.
- (إِنَّمَا اللَّهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ [2]) أي : إن الله إله واحد.
- (وَلَمَّا أن جَاءتْ رُسُلُنَا [3] لوطاً سِيءَ بِهِمْ) فأن مؤكدة ؛ بدليل آية هود : (وَلَمَّا جَاءتْ [4] رُسُلُنَا لُوطاً...) بدون أن.
- غضبت من غير ما جرم.
- جئت لأمر ما.
- (أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ [5]).
- (وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ [6]).
- (مَا جَاءنَا مِن بَشِيرٍ [7]).
- (هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ [8]).
- (أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ [9]).
- (وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ [10]).

---

(1) شرح ابن يعيش ٨ / ١٢٨ - ١٣٠.
(2) ١٧١ النساء.
(3) ٣٣ العنكبوت.
(4) ٧٧ هود.
(5) ٢٨ القصص.
(6) ٣٤ فصلت.
(7) ١٩ المائدة.
(8) ٣ فاطر.
(9) ٣٦ الزمر.
(10) ١٩٥ البقرة.

وظيفة التوكيد لما سبق من الأحرف التي تسمى زائدة ، هذه الوظيفة واضحة شديدة الوضوح ، من خلال الشواهد التي قدمها ابن يعيش ، والتي قدمنا للقارئ منها ١٢ شاهدا ، ففيها بعض الأمثلة.

٢- ابن هشام : مرة أخرى مع صاحب مغني اللبيب [1] الذي جاء فيه نصا : (أن الزائدة : لا معنى لأن الزائدة غير التوكيد كسائر الزوائد) إذن سائر الزوائد - في نظر ابن هشام - لا معنى لها عبر التوكيد.

٣- السيوطي : في المزهر [2] يقول : (ومن سنن العرب الزيادة ، إما للأسماء ، أو الأفعال ، أو الحروف ، الزيادة نحو : (وَيَبْقَى [3] وَجْهُ رَبِّكَ) أي : ربك ، ومنه : لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ [4] - وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن [5] بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ) أي : عليه).

وفي الهامش ينقل عن الصاحبي لابن فارس : (أما الأسماء - أي التي تزاد أو يمكن أن تزاد - فالاسم والوجه المثل ، فالاسم نحو قولنا : بسم الله ، إنما أردنا : بالله والوجه نحو : وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ، والمثل : فَأْتُواْ [6] بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ، ويقول قائلهم : مثلي لا يخضع لمثلك ، أي : لا أخضع لك ، ومنه : وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ).

نعود مرة أخرى إلى السيوطي : (ومن سنن العرب الزيادة في حروف الاسم ، إما للمبالغة ، وإما للتسوية : في الصاحبي للتسويه - نحو : رَعْشَن للذي يرتعش ، وزُرْقُم للشديد الزَّرَق ، وشَدْقَم للواسع الشدق ، ومنه : كُبّار وطُوّال وطِرِمّاح للمفرط

---

(1) ١ / ٣٤.
(2) ٣٣١/١ - ٣٣٢.
(3) ٢٧ الرحمن.
(4) ١١ الشورى.
(5) ١٠ الأحقاف.
(6) ٢٣١ البقرة.

الطول ، وسِمْعَنّه ونِظرْنّه للكثيرة التسمع والتّنَظّر ، ومن سننهم الزيادة في حروف الفعل مبالغة ، يقولون : حلا الشيء ، فإذا انتهى قالوا : احلولي ويقولون : اقلولى على فراشة ، واثنونى صدرة على البغضاء ، انحنى وانطوى.

ويلاحظ على نص السيوطي - وإن كان بعضه مقتبسا من ابن فارس - ما يلي :

١- إن الزيادة من سنن العرب ، أي هذه خصيصة مهمة في عربية بني يعرب.

٢- إنه وسع الزيادة من الحرف ومن حرف الجر خاصة إلى الأسماء والأفعال فضلا عن الحروف.

فمن الأسماء الوجه والاسم والمثل ، وقد قدمت شواهد وأمثلة على حذفها كما سبق :

- وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ = ويبقى ربك.
- بِسْمِ اللهِ = بالله.
- فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ = بسورة منه

٣- لكن السيوطي يضيف زيادة الحرف في الأسماء والأفعال ، ففي الأسماء مثل (سمْعَنّه - نظرنه) للمرأة كثيرة التسمع والتنظر تجسسا وتطفلا على غيرها.

ومن الحروف التي تزاد على الأفعال :

- قلى ← اقلولي.
- حلا ← احلولي.

ولكن السيوطي لا يقول بالتوكيد - أي توكيد المعنى - وظيفة للزيادات ، بل يضيف هنا وظيفة أخرى هي المبالغة والتشويه ، ويربط هذا بزيادة الحرف على الأسماء مثل (رَعْشن) النون هي الزائدة ، ومثال الأفعال (اقلولى).

لكنه لا يشير إلى وظيفة زيادة الأسماء (الاسم والوجه والمثل) ولا إخالها هنا غير التوكيد ، وإلا لماذا جيء بهن.

ولعل المبالغة والتشويه لا تختلفان كثيرا عن التوكيد ، بل إن المبالغة أبعد إلى حد كبير وأكثر من التوكيد ، إذا الأخير مجرد توكيد المعنى المراد ، في حين تزيد المبالغة والتشويه عن المعنى المراد ، أو المراد توكيده ، وهكذا.

وفي كل الأحوال فإن قضية الزوائد خصوصا الحروف ، وبشكل أخص حرف الجر ما يحتاج إلى دراسات خاصة تجلي غوامضها وتقيد شواردها وتلم المتناثر المتفرق من شعثها ؛ وهو ما نأمل أن يقوم به بعض طلابنا في المستقبل القريب.

٤- شوقي ضيف : في تجديد [1] النحو يقسم حروف الزيادة إلى قسمين ، الأول : حروف زائدة جارة ، مثل : (رب - الباء - من - الكاف) الثاني : حروف زائدة غير جارة : (ما - إن - أن ...).

يشير إلى الوظيفة الإعرابية من الجر وغيره ، وهذي إحدى وظائف الحروف الزائدة.

٥- الأشموني : في شرح الأشموني [2] يعطي أمثلة على الحروف الزائدة مما سبقت الإشارة إليه الإشارة والكتابة ، إلا أنه يشير إلى مسألة مهمة ، هي : (التابع للفاعل المجرور بحرف جر زائد ، يجوز فيه الجر حملا على اللفظ ، والرفع حملا على المحل) تقول :

- (ما جاءني من رجل كريم) بجر كلمة (كريم).

---

(1) ص ٢٢٩.
(2) تحقيق عبد الحميد السيد ، القاهرة ١٩٩٣ ، ٢٥/١.

- (ما جاءني من رجل كريم) برفع (كريم).

ومن عجب أن المعطوف إذا كان معرفة تعين رفعه فقط : (ما جاءني من زيد ، ولا عبيد) لم ، ولمه ؟ لأن شرط جر الفاعل بمن الزائدة أن يكون نكرة ، والعلمان في الجملة (زيد وعبيد) [1] معرفة.

وهكذا فإن علماء العربية إما ينصون على أن وظيفة الحرف الزائد هي التوكيد ، لا شية فيه ، وإما لا يعارضون هذا الرأي ، ولا يفندون.

ولكن ترى هل الوظيفة الوحيدة للحروف الزائدة هي التوكيد فقط ؟ كلا ، نحن نكرر دوما ودائما في دستور اللغة العربية أن لغتنا هي لغة شعر ، ومن ثم فإن حرف الجر الزائد يعطي مساحة أوسع من حرية الحركة والمناورة داخل الجملة ، ما يناسب الوزن الشعري المطلوب ، قارن بين :

- ما جاءني من زيد.
- ما جاءني زيد.

فالوزن الأول مختلف عن الثاني ، وكذا في سائر الأمثلة التي فيها حرف زائد إذا اقتضى الوزن الحرف الزائد جئنا به ، وإذا اقتضى غيابه جعلناه غائبا ، وعنه استغنينا.

هذا شيء والشيء الآخر هو أن هذي الحروف الزائدة هي بمثابة الزينة والديكور في الجملة ، وهذا ما يشبه بعض الخطاطين المهرة الذين يزينون لوحاتهم من الخط العربي برتوش وأشكال ورموز لا تدخل في صلب الحروف ، وليست مما يلحق الخط العربي من رموز الحركات القصار أو الشدة أو المدة أو السكون ، إنما

(1) شرح الأشموني ٨٩/٢.

هي زوائد يقصد بها التحلية ومزيد من الزينة ، كما نفعل عند تقديم الطعام لمن نحب حيث يزدان بزيادات وإضافات تجمل ما على المائدة ، ولا تكمله.

ومن ناحية أخرى فإن السيوطي يقدم بُعدا آخر أبعد من التوكيد وهو المبالغة والتشويه ، وهي نوع من المبالغة ، ولكنا رأينا محدودية الأسماء الزائدة التي حصرها السيوطي وقبله ابن فارس في ثلاثة أسماء (الاسم والوجه والمثل).

ويبدو لي بعد هذي التحليلات أن الزوائد - خاصة الحروف - إنما قصد به الزيادة في معنى الجملة ، سواء بالتوكيد أو المبالغة أو التشويه ، وليس المقصود أنه جزء زائد على النص وعبء عليه لا فائدة منه ، ولا وظيفة.

المادة السابعة والأربعون

{٤٧}

يتميز الزمن في اللغة العربية بالدقة الشديدة والمرونة الواضحة.

كيف تجمع اللغة العربية في استعمالها للألفاظ المعبرة عن الزمن بين الدقة والمرونة ؟ هذا ما يجيب عنه العلامة العقاد في كتابه النفيس (اللغة الشاعرة [١]) :

يعرف ارتقاء اللغات بمقاييس كثيرة ، منها - بل من أهمها - مقياس الدلالة على الزمن ، في أفعالها ، ثم في سائر ألفاظها.

واللغات نشأت على نحو قريب من نشأة الكتابة على الطريقة الهيروغليفية ، أي طريقة الدلالة.

يعبر الكاتب - مثلا - عن الكتابة فيرسم إنسانا ينقش أشكالا ، على حجر أو على ورق بالقلم ، أو الأداة المعدة للكتابة ، ويدل بذلك على مجرد حدوث الفعل في غير زمن محدود ، سواء أكان الكاتب قد فرغ من عمله ، أو لا يزال يكتب ، أو يريد أن يكتب بعد حين ، دون إشارة من بعيد أو قريب إلى الزمن ، فإذا أراد أن يدل على وقت الفعل أشار إليه بعلامة مضافة ، يفهم منها البعد أو الإقبال أو البعد والإقبال ، أو الاستمرار والاستغراق.

وهذا الذي حدث في الكتابة قد حدث على نحو قريب منه في الكلام ، مع توضيح المعنى بالإشارة ، واعتماد السامع على المشاهدة ، فلابد من علامة صوتية - لفظية -

(1) ص٤٩ وبعدها.

أو جسدية للتفرقة بين ما كان وما هو كائن ، لا يزال ، وما سيكون ، أو سوف يكون وما هو معلق على شرط لا ينتظر أن يكون إلا في حالة معلومة.

ولهذا يظهر ارتقاء اللغة من علامات الزمن في أفعالها ، فاللغة التي تدل على الزمن بعلامات مقررة في الفعل أعرق وأكمل من اللغة التي تخلو من تيك العلامات ، وبمقدار الدلالة على الزمن تكون العراقة والرقي.

ولقد وهل ووهم من توهم العربية نشأت ، نمت وترعرعت على صحراء جرداء خاوية ، لا قيمة للوقت عند أهليها وقاطنيها ، فلا جرم - في رأيهم - أن العربية خلو عاطل من التوقيت الدقيق في تمييز الأفعال والأحداث.

كل هذا وهم ووهل وتوهم وسوء فهم ، إذ عربية بني يعرب قد اشتملت على وسائل لتمييز الأوقات ، لا نجد له نظير في اللغات الأخر ، سواء نظرنا إلى ضرورات ساكني جزيرة العرب ، أو نظرنا إلى تصريف أفعالها وكليماتها.

فكل لحظة من لحظات النهار والليل كان لها شانها في حياة سكان البادية بين السفر والحل والإقامة والترحال ، منها ما هو صالح لبدء المسير ، وما هو صالح للراحة الطويلة ، وما لا يصلح لغير السكينة والاستقرار.

ولذا كانت كلمات البكرة والضحى أو الغدوة والظهيرة والقائلة والعصر والأصيل والمغرب والعشاء والهزيع الأول من الليل والأوسط والسحر والفجر والشروق ، ويكاد هذا التقسيم على هذا النحو يغطي اليوم والليلة وعلى مدى الساعة برغم صعوبة التفرقة بين هدى الأوقات في كثير من اللغات الأخرى بغير الجمل أو التركيب.

بل إن كل موسم من مواسم السنة له شأنه في المرعى والانتجاع وطلب الماء والتجارة أو الأمان ، لذا كانت أسماء المواسم والفصول جميعا ، ووجدت معها ثلاثة

أسماء مختلفة للدلالة على الدورة حول الشمس - في مصطلح الفلكيين - فهي السنة وهي العام ، وهي الحول ، ولكل منها موضعه في التعبير.

رأينا في عربية بني يعرب كليمات اليوم والنهار والليل ، ولم تنقسم إلى يوم وليل دون تفرقة بين معنى اليوم ومعنى النهار.

ومن ثم وجدت كلمات مختلفة للأوقات حسب الطول والقصر في المدة ، اللمحة واللحظة للوقت القصير ، والبرهة والردح للوقت الطويل ، والفترة للمدة العارضة بين وقتين ، بل رأينا في العربية ألفاظ الحين للزمن المقصود المعين ، والعهد للزمن المعهود المقترن بمناسباته ، والزمن للدلالة على جنس الوقت - كيفما كان - والدهر للمدة المحيطة بجميع الأزمنة والعهود والأحيان.

مثل هذا الإحساس بالزمن لا تصوره الكلمات في لغة من اللغات التي تعرفها ، وعلى صورة أدق من هذه الصورة.

ولا غرابة في هذا ولا غرو ، إذ لو أراد الباحث أن يلتمس السبب والذي يبطل العجب ، كيف ؟ الزمن الماضي مهم عند أبناء البادية العربية في كل عهد من عهوده ، إذ هو مستودع المفاخر والأنساب والثارات والذكريات ، فليس من المصادفة أن يسمى التاريخ عندهم باسم الأيام ، وأن يعرف لكل يوم أثره فيما كان وما يكون.

الزمن الحاضر نال من العناية بأجزائه وتقسيماته لأن كل لحظة منه ذات شأن في الحركة والإقامة ، وفي المرعى والتجارة ، وفي الحرب والسلم.

وليس من الطبيعي أن يبلغ إحساس قوم بالوقت هذا المبلغ ، ثم يخلو كلامهم من الدلالة على الإحساس به في مختلف مواضعه ومناسباته.

والواقع الواقع أن اللغة العربية تستوفي هذه الدلالة بأسلوبيها المعروفين في اللغات بأسلوب الكلمات المستفادة من التصريف والاشتقاق أو من خلال الأدوات المصطلح على تخصيصها لمعانيها ، وأسلوب التعبيرات التي تدخل في عداد الجمل والتراكيب [1].

ونستمر مع العقاد الذي يقول [2] : الحاضر متصل دائما بالمستقبل ، لا ينفصم عنه لحظة من اللحظات ، لأنه ما من لحظة - مهما قصرت - إلا هي كافية أن تجعله في حكم ما كان ، وليس حاضرا الآن.

وهذا الفارق الدقيق ملحوظ واضح في تقسيم الأفعال العربية ؛ لأنها ماض ومضارع ، هذا الأخير يدل على الحال المتصل بالاستقبال ، وقد فطن اللغوي جسبرسن - كما ينقل عنه العقاد - الزمن ينقسم إلى جزءين ، ماض ومستقبل ، وبينهما وقت حاضر كأنه النقطة الهندسية ، لا طول لها ، ولا عرض ، ولا ارتفاع ، لكنها على الدوام منسوبة إلى المستقبل ، أو جزء منه ، هذه التفرقة الفلسفية المنطقية ملحوظة في التفرقة النحوية بين الحال والاستقبال في عربية بني يعرب.

ويتطرق صاحب اللغة [3] الشاعرة إلى الدعاء والزمن فيقول : في مثل : (صحبتك السلامة - حفظك الله - رعاك الله) ترى أنه برغم أن الفعل جاء في صيغة الماضي ، فإن المعنى بداهة بداهة متعلق بالاستقبال ، وفي مجيئه على صيغة الماضي ما يشعر بقوة الأمل في الاستجابة ، كان ما يرجى أن يكون قد كان وتحقق واستجيب له.

ومن الدعاء ينتقل العقاد إلى الشرط والنفي ليذكر أن اللغويين الغربيين يلحقون الشرط والنفي بالكلام على الزمن في الأفعال وهو إلحاق معقول مقبول لأن الشرط

(1) اللغة الشاعرة ، ص٥١ وقبلها.
(2) السابق ، ص٥٣ وبعدها.
(3) ص٥٤ ، ٥٥.

والنفي يشيران إلى ما يحدث ـ في الإثبات ـ وما لا يحدث ـ أي في النفي ـ في زمن من الأزمان.

وقد استوفى الشرط أيما استيفاء في لغتنا العربية ، فكان من أدوات الشرط ما يفيد الاحتمال الضعيف ، أو القوى : (إن حدث هذا .... ـ إذا حدث هذا ...) ومنها ما يفيد الاحتمال مع الفرض والتقدير ، ومنها ما يفيد الشرط المعلق على توقيت منتظر أو متفق عليه ، مثل (متى) ومنها ما يربط السببية أو النتيجة العقلية على الإطلاق ، الذي لا يتقيد بالزمان : (مهما ـ إيان ـ أني) ومثل : (لو) في بعض الأحيان.

النفي في العربية هو الآخر فيه دقة وقصد يدل على جملة قواعد القصد في لغتنا ، فالنفي بلم مقتصر على نفي الحدوث وهو بداهة لا يكون إلا لزمن مضى لأننا لا نتكلم عن شيء حدث قطعا أو لم يحدث قطعا إلا إذا كان الكلام على ما مضى ولهذا تقتصد العربية فلا تحول الفعل من صيغة المضارع إلى الماضي بعد لم ، يقول العربي : (ما حدث هذا) ولا يقول : (لم حدث هذا) لأن (ما) تدخل على المضارع فتفيد نفي الانبغاء ، لا نفي الحدوث.

الفعل الماضي الذي تسبقه (ما) نفي الوقوع هنا لا يخلو من نفي الانبغاء (ما فاه فلان بهذا الكلام ـ حاشاه أن يفوه به) وهو الفارق بين (لم) التي لا تحتاج إلى الفعل الماضي لأنها تفيد الماضي قطعا وبين (ما) التي تدخل على الماضي والمضارع لأنها تدل إلى جانب معنى الوقوع على نفي الشيء ؛ لأنه لا ينبغي ولا يعقل أو لا يقع في الحسبان.

أما إذا نفى الحدوث مع انتظاره في المستقبل فصيغة المستقبل هنا لازمة ، ولذا يقال (لما يحدث هذا) عند ترقب ما يحدث بعد قليل أو أكثر.

الفعل يتأثر بموقعه من الأداة السياقية ومعناها ؛ لأنه ليس منقطعا عن العلاقة الزمنية ، بل هو بها متأثر ، في لفظه ومعناه (لم يفعل) يختلف عن (لن يفعل) وعن (ما يفعل) وهو اختلاف يدل على ارتباط العلاقة الزمنية بالإعراب ، وإن تعذر تعليله.

الخلاصة : العربية لغة الزمن بأكثر من معنى واحد لأنها تحسن التعبير عنه ، ولغة الزمن لأنها قادرة على مسايرة الزمن في عصرنا هذا ، وفيما يلي من عصور.

الزمن في العربية ـ كما كل شيء فيها ـ يتسم بالبساطة ، والخصوبة في الأدوات والآليات والجمل المعبرة عنه ، أو بتعبير آخر يتميز بالدقة الشديدة والمرونة الواضحة.

المادة الثامنة والأربعون

{٤٨}

في العربية تجد عاملا واحدا يعمل ـ أو يرتبط ـ بأكثر من معمول والعكس صحيح ، هناك أكثر من عامل يعمل في معمول واحد.

كيف بالله عليك يحدث وفي أي باب من أبواب العربية ، أو في أي أبوابها نجد هذا ؟ في بابين مشهورين في النحو العربي ، يتمنى كثير من باده الراي وباديه أن يحذفا من نحو العربية ، أو حتى من معاجم العربية ، هما ، أو إنهما : التنازع والاشتغال.

فما حقيقة البابين ؟ إنهما بشديد البساطة من غير تكلف ولا تمحل ولا محال :

التنازع : عاملان أو أكثر يتنازعان على معمول واحد ، مثل ماذا ؟ الأمثلة والشواهد بلا عد ولا حصر ، مثل : (آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً [1]) قطرا هذه مفعول به منصوب ، لكن لأي الفعلين ، الأول (آتوني) أو الثاني (أفرغ) ؟ في رأيي المفعول لكلا الفعلين ، نوع من الاختصار كأنه قال : آتوني قطرا ـ أفرغ عليه قطرا ـ أو آتوني قطرا لأفرغه عليه.

الاشتغال : هو في تعريف النحاة [2] : أن يتقدم اسم ويتأخر عنه عامل ، سواء أكان هذا العامل فعلا أو وصفا ، مشتغل عنه بضميره أو مناسبه ، بحيث لو

---

(1) ٩٦ الكهف.
(2) الكامل ... لأحمد صفوت ٢٦٧/١.

تفرغ له لنصبه لفظا أو محلا ، نحو :

- السيارة باعها.
- عليا أحببت أبناءه.
- القصر بنيته.

فعل واحد ـ عامل واحد ـ لكن المعمول أكثر من واحد ، كما في الأمثلة ، الفاعل يعمل في الضمير وفي الاسم قبله ، أو فيما هو مرتبط به ، إذ يرى النحاة أن الفعل ـ الفعل أو الوصف ـ مشتغل عن نصب الاسم قبله بنصب هذا الضمير والعمل فيه.

هنا إذا عامل واحد ـ فعل واحد ـ يمكن أن يعمل في معمولين أو يقوم بنصب اسمين ، الأول الاسم الظاهر ، والثاني ضميره ، أو هو به مرتبط (عليا أحببت أبناءه).

والآن نعود إلى التنازع لنعطي مزيد أمثلة ، من القرآن والحديث :

- (هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيهْ [1]) خذوا اقرءوا كتابيه.
- وفي الحديث : (تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ، ثلاثا وثلاثين[2]) التنازع هنا بين أكثر من عاملين ، إذ العوامل ثلاثة : تسبحون ـ تحمدون ـ تكبرون ، ومن ناحية أخرى فإن المتنازع فيه ـ أو عليه ـ أيضا متعدد ، وهما : دبر كل ، ثلاثا وثلاثين ، أي أن التسبيح والتحميد والتكبير كلها كلها كانت دبر كل صلاة ، وفي ذات الوقت كانت ثلاثا وثلاثين ، ما يشير إلى جواز تعدد العامل أو العوامل في معمول واحد ، أو العكس تعدد المعمول مع عامل واحد أو أكثر ، هذي هي القصة في بابي الاشتغال والتنازع ، باقي التفاصيل هي صنعة النحاة ، والتفاصيل غير المنطقية الذي ينسى بعضها بعضا.

---

(1) ١٩ الحاقة.
(2) السابق ٢٧٩/١.

نعود مرة أخرى لنذكر مثالا أخيرا في باب التنازع ، هو :

- ونخلع ونترك من يفجرك (حديث شريف).

ومن الملاحظ أننا في باب التنازع لدينا شاهدان من القرآن - كما سبق - وشاهدان فقط من الحديث الشريف ، كما يلاحظ أيضا أنه لم يقع خلاف بين القراء في إعراب شاهدي القرآن ، كما لم يقع خلاف بين رواة الحديثين (تسبحون ..... - ونخلع [1]...).

ولنر ما يقول النحاة [2] في أمر التنازع : (إذا تنازع عاملان ، جاز إعمال أيهما شئت باتفاق) فما المشكلة إذن ؟ إذا كان يجوز باتفاق النحاة إعمال أي المعمولين - أو أكثر - بعامل واحد ؟.

لا مشكلة في رأيي ، ولنستمر مع صاحب القول السابق ، وفي ذات الفقرة ، إذ يقول : (وحكى بعضهم - بعض النحاة - الإجماع على جواز إعمال كل منها) أي كل عامل منها.

ومن ثم يجوز في مثل : (هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيَهْ) أن يعمل أي الفعلين (هاؤم) خذوا كتابيه ، ويجوز (اقرءوا كتابيه) أي الفعلين أحببت ، وهذا باتفاق النحاة.

ويجوز أيضا وباتفاق النحاة إعمال الفعلين معا (هاؤم) و(اقرءوا) فما المشكلة إذن ؟ المشكلة في تفصيلات النحاة المملة والمتوهة ، وهذا نموذج من هذي التفصيلات والمماحكات ما ننقله عن نفس المصدر والكتاب ، كيف ؟.

نعيد مرة أخرى ما قلناه وما نقلناه : (إذا تنازع عاملان جاز إعمال أيهما

---

(1) اخترنا أحد كتب النحو ، هو : (الكامل ... لأحمد صفوت) القاهرة ١٩٦٣م.
(2) السابق ٢٨١/١.

شئت) الآن القضية إذن حسمت ، الأمر للقارئ وللكاتب ، يصح لهما أن يختار رأي العاملين شئنا أعملناه ، بل (وحكى الإجماع على جواز إعمال العوامل كلها).

كما سبق فإن مماحكات النحاة وتفصيلاتهم قد قادت ـ أحيانا ـ إلى التيه والتوهان والسفسطة (إذا تنازع عاملان ـ أو أكثر ـ جاز إعمال أيهما شئت) ويردف صاحب الكامل عقيب ما سبق (غير أنهم ـ أي النحاة ـ اختلفوا في الأولى منهما ـ أو منها ـ فقال البصريون : الثاني أولى لقربه من المعمول ، وقال الكوفيون : الأول أولى لسبقه) ومن عجيب أنهم (سكتوا عن الأوسط عند تنازع الثلاثة).

جدل وسفسطة تذكرني بحوار بين امرأتين أميتين ، لأكثر من ساعة تتجادلان هل الساعة الرابعة تأتي أولا أم الخامسة ؟ إحداهما تجاحش عن وجهة نظرها ، فتقول : (الخامسة تأتي أولا ، لأنها الأكبر) وتقول الأخرى منافحة عن نفسها : (تأتي أربعة أولا) لأن العيد الصغير ـ عيد الفطر ـ يأتي قبل العيد الكبير ؛ عيد الأضحى ، حوار مضحك ومسل (ساعة لقلبك).

نترك التنازع ـ وقانا الله شر النزاع والتنازع ـ فنرى النحاة يقسمون اسم الاشتغال ـ الذي يأتي قبل الفعل والعامل ـ إلى خمسة أقسام ، لهذا الاسم عند النحاة خمسة أحكام ، هي :

١- وجوب النصب : متى يكون هذا يرحمك الله ، وكيف يا يرحمك الله ؟ إذا وقع هذا الاسم بعدما يخص الفعل ، منطق وبداهة ، لكن أين المثال يتضح المقال ؟ ما يخص الفعل مثل أدوات الشرط والتحضيض والاستفهام باستثناء الهمزة :
   - إنْ أخاك أخطأ فسامحه ، الاسم بعد أداة شرط.
   - هلا السائل أعطيته ، بعد أداة تحضيض.
   - هل العالم قدرته.

٢ـ وجوب الرفع : يجب رفع الاسم ـ اسم الاشتغال ـ في موضعين ، هما :

أ ـ إن وقع بعد ما يختص بالابتداء ، مثل إذا الفجائية : خرجت فإذا اللص يطارده الشرطي ، أو بعد (ليتما) نحو : ليتما الصناعة المصرية ندعمها ، وبعد واو الحال : دخلت وعلى يعتنقه أبوه.

بـ إذا وقع الاسم قبل أداة لا يعمل ما بعدها فيما قبلها ، لأن لها حق الصدارة ، هنا منطق وبداهة :

- الكريم إن أكرمته أكرمك.
- السائل هلا أعطيته.
- العالم هل قدرته.

لاحظ أن العربية فيما سبق غير نمطية ، نظرها حاد وحديد ، فجملة ـ مثلا ـ هلا السائل أعطيته ، الاسم واجب النصب ، لكن الجملة لو تغير ترتيب وحداتها وأجزائها ، أي : السائل هلا أعطيته لوجب للسائل الرفع وليس النصب ، لقد حالت الأداة (هلا) بما لها من حق الصدارة بين الفعل الذي أتى بعدها وبين الاسم قبله ، فلم يتمكن نياك الفعل من عمل النصب في الاسم قبلها ، كما جاء في الحالة الأولى : هلا السائل أعطيته.

إلى هنا انتهت القصة ؟ نعم ولا ، كيف بالله عليك ؟ لا تعجل عليّ ، يذكر النحاة خمس حالات لاسم الاشتغال :

- وجوب النصب ، كما مر.
- وجوب الرفع ، كما سلف.

بقي إذن ثلاث حالات :

- رجحان النصب.
- رجحان الرفع.

- استواء الرفع والنصب.

وأسطيع أقول بكل ثقة واطمئنان وثبات جنان ، إن لهذا الاسم حالات ثلاث فقط ؟ فقط ، هن :

- وجوب النصب.
- وجوب الرفع.
- استواء النصب والرفع.

فما تقول يا رعاك الله في رجحان النصب على الرفع ، أو رجحان الرفع على النصب ؟ أقول والأرزاق على الرزاق : إن ترجيح ما سبق هو صنعة نحوية تخرج من صلب الموضوع وكبد حقيقته إلى الحواشي والتفاصيل التي ينسى بعضها بعضا وتودي بنا إلى بحار التيه وقعر الظلمات.

وهذا دليلي ، أو أدلتي :

١- في رجحان النصب اتفق القراء السبعة على رفع الاسمين الأولين من مفتتح سورة النور [1] : (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ) قرأ السبعة - أي القراء السبعة - جميعا - دون استثناء ، ودون خلف بينهم بالرفع ، ما قرأ وما انفرد أحدهم بالنصب مطلقا مطلقا ، بل ما في القراء من الثلاثة المتممة للعشرة ، وكذا الأربع الشواذ ما قرأ منه واحد منهم بالنصب أبدا ، ولعل النحاة لا يجدون كبير عناء ، أو شيئا منه في تبرير الرفع إجماعا من القراء ، في حين هم لم يتكلموا على ترجيح النصب.

(1) الآية الثانية.

٢- في رجحان الرفع يقول النحاة : (إنما رجح الرفع لسلامته من الإضمار الذي هو - أي الإضمار - خلاف الأصل ، ونصبه عربي جيد) كيف يترجح الرفع والنصب عربي جيد ، وكيف يترجح الرفع لمجرد لمجرد سلامته من الإضمار ؟ هل هذا الإضمار خلاف الأصل أم هو شيء ، معيب ، كيف يتفق هذا مع الإقرار بأنه عربي جيد.

على كل الأحوال فقد انتهينا من كل ما سبق إلى :

أولا : إن المصطلحين (تنازع - اشتغال) قد أصبح لهما من الظلال ما يدفع إلى وضع عنوان آخر لهذين البابين ، وبديل مناسب لهذين المصطلحين.

ثانيا : بما أن القضية قضية عامل أو العامل ، وإن كان على نظرية العامل ملاحظ لدى المحدثين والقدماء ، فإننا نطرح الموضوعين في هذا الإطار ، وتحت هذين العنوانين :

تعدد العوامل على معمول واحد [1] ← بديل التنازع

عامل واحد لأكثر من معمول ← بديل الاشتغال

ويمكن أن يدمج العنوانان تحت مسمى :

تعدد العامل ، وتعدد والمعمول

ثالثا : وفي الموضوعين كما هما الآن في أسفار النحويين وكتاباتهم كثير من الحشو والتفاصيل والمماحكات النحوية التي تظهر على السطح ، ينسى بعضها بعضا.

---

(1) أو أكثر.

رابعا : أكثر من عامل يمكن أن يتكالب على معمول واحد ، أو أكثر (ونخلع ونترك من يفجرك).

خامسا : في الاشتغال ناقش النحاة الاسم الذي يأتي قبل العامل (العالم هل أكبرته ــ الرجل قابلته) أو بمعنى آخر إعرابه ، قسموا هذا الإعراب إلى خمسة إعرابات :

١- وجوب النصب.
٢- وجوب الرفع.
٣- رجحان النصب على الرفع.
٤- رجحان الرفع على النصب.
٥- استواء النصب والرفع ، دون ترجيح واحد منهما.

والرأي أن نقتصر على وجوب النصب أو الرفع ، الباقي من تفصيلات النحاة ومماحكاتهم ، لذا فالرأي في (٣ ، ٤ ، ٥) أن تدمج في عنوان واحد ، هو استواء النصب والرفع.

مسألة الرجحان في (٣ ، ٤) هي من صنع النحاة ، ولذا قررنا ما سبق ، وأن يكون تقسيم إعراب اسم الاشتغال ثلاثيا ، لا خماسيا ، كما فعل النحاة.

هذا خلاصة ما نراه في بابي التنازع والاشتغال ، آمل أن يكون ما قدمت مدخلا مناسبا لعلاج الموضوعين ، في سبيل تقديم العربية لعشاقها وفرسانها في أشد الصور يسرا واختصارا وسهولة ، خدمة للغتنا وأمتنا.

المادة التاسعة والأربعون
{٤٩}

الحكم النحوي أساسه السماع ، ثم الإجماع والقياس ، لا شيء في النحو أو من النحو إلا بأدلة قاطعة ومنطقية.

نعتمد في هذه المادة وشروحها على السيوطي في كتابه الرائع ، صغير الحجم كبير كبير الفائدة ، هو كتاب الاقتراح ، مع تحليل ما يقول العلامة السيوطي.

أول شيء يجب قوله هو أن هذي الحضارة الإسلامية اعتمدت على أسس مهمة راسخة غاية الرسوخ ، ومن أهم هذي الأسس هو الاعتماد على المشافهة والمشافهة والمشافهة.

كيف وكيف ؟ إن الله لم يرسل كتابا من كتبه إلا ومعه الرسول ، لا يأتي الكتاب وحده مطلقا مطلقا ، لذا جاء القرآن كغيره من الكتب السابقة ومعه نبي الأمة محمد (ﷺ) فقط ؟ كلا.

هذا القرآن جاء من رب العزة مشافهة إلى جبرائيل (ﷺ) ومنه إلى سيد العرب وسيد العجم (ﷺ) ومنه إلى الصحب الكرام - رضوان الله عليهم - ومن هؤلاء إلى التابعين ومنهم إلى تابعيهم ، جيلا يأخذ عن جيل من الرجال جهارا نهارا عيانا بيانا ، ومن فم إلى فم ، إلى فم ... حتى وصلنا - نحن المسلمين - في بدء الألفية الثالثة للميلاد.

هذا عن القرآن ، وكذا عن حديث سيد الخلق (ﷺ) أخذ مشافهة من محمد إلى أصحابه ثم التابعين ثم تابعيهم إلى الآن ، وهكذا في كل العلوم.

وهكذا الشان والحال في علوم اللغة ، هذا علامة العربية أبو الفتح عثمان بن جني قد عاش مع أستاذه وشيخه أبي علي الفارسي أربعين سنة يلازمه في بيته.

أما أدلة النحو [1] فتبدأ بالسماع فالإجماع والقياس ، مع ملاحظة أن الأخيرين - الإجماع والقياس - لابد لكل واحد منهما من مستند من السماع ، كما في الفقه ، إذ الأصل في كليهما - النحو أو الفقه - هو السماع.

والمقصود بأدلة النحو هنا الإجمالية العامة التي تتصل بأصول النحو وأسسه وليس الأدلة التفصيلية ، مثل البحث عن دليل يخص جوز العطف على الضمير المجرور من غير إعادة الجار ، كما في قوله تعالى : (وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ [2]) أي : وبأرجلكم إلى الكعبين.

شواهد النحو وأدلته السماعية تأتي أولا من القرآن الكريم ، هو حجة في النحو لأنه أفصح الكلام بشتى قراءاته الصحيحة والشاذة ، مع الإشارة إلى أن القراءات الشاذة لا يجوز القراءة بها ، ولا الإقراء ، لا في الصلاة ، ولا في خارج الصلاة.

ثم تأتي السنة شرط أن تروي بلفظها ، وليس بمعانيها ، ثم كلام من يوثق بعربيته ، ثم اجتماع أهل البلدين الكوفة والبصرة ، ثم القياس ، وما يجوز من العلل وما لا يجوز.

---

(1) الاقتراح ، ص٣٥ وبعدها.
(2) ٦ المائدة.

وعند التعارض يقدم السماع على القياس ، وتقدم اللهجة الحجازية على التميمية إلا لمانع ، وأقوى العلتين على أضعفهما ، أخف الأقبحين على أشدهما قبحا [1].

الحكم النحوي على ستة أضرب :

١ـ واجب : كرفع الفاعل وتأخيره عن الفعل.

٢ـ الممنوع : عكس ما سبق ، أي عدم رفع الفاعل ، وتقدمه على الفعل.

٣ـ الحسن : رفع المضارع الواقع جزاء بعد شرط ماض.

٤ـ القبيح : رفع فعل الجزاء بعد شرط مضارع.

٥ـ خلاف الأولى : كتقديم الفاعل في نحو : (ضرب غلامه زيدا).

٦ـ الجائز : على السواء ، لحذف المبتدأ أو الخبر وإثباته ، حيث لا مانع من الحذف ، ولا مقتضٍ له.

وقد اجتمعت الأقسام الستة في الصفة المشبهة [2].

ومما به تجدر الإشارة والإشادة أنه يمكن الاستدلال بقول العرب مسلمهم وكافرهم [3] ، وهذي قمة النزاهة والموضوعية والواقعية أيضا ، حيث أقوال العرب قبل البعثة المحمدية عام ٦١٠م يمثل كما هائلا ، لا يمكن تجاهله ، أو إنكاره ، وهو ما كان سيؤدي إلى ضياع ثروة لغوية هائلة لهؤلاء الجاهليين قبيل بزوغ النور المحمدي.

ولكن أي العرب يحتج بكلامهم ؟ قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ كانت العرب ترد إلى مكة للحج والتجارة ولأسواق العرب ، فكانت تنتقى من لهجات

---

(1) الاقتراح ، ص٤٤ وقبلها.
(2) الاقترح ، ص٤٤ ، ٤٥.
(3) السابق ٥٧.

القبائل العربية الواردة إليها ، ما جعل لهجتها وكلامها في قمة اختيار النحاة واللغويين.

إلا أن بعض العرب كان لا يؤخذ عنهم ، وهم :

١- الحضري ، أي من سكن الحضر ، فقد لان بهذا جلده.

٢- سكان البراري في أطراف جزيرة العرب بجوار الأمم الأخرى غير العربية.

٣- اليمن : لمخالطتهم الهند والحبشة التي كان لا يفصلها عن اليمن غير باب المندب - ٢٦ ك م - ولولادة الحبشة فيهم ، كيف ؟ لقد احتل الأحباش اليمن - ٧٢ سنة - قبل الإسلام ، وفي هذه الفترة حاول كبيرهم أبرهة هدم الكعبة المشرفة - عام ولادة محمد - ٥٧٠م - وكانت نتيجة الحملة ما هو مشهور من هلاك أبرهة وجنده بالطير الأبابيل.

وبقي الأحباش في اليمن إلى أن تمكن الناس من طردهم بمعاونة بضع مئات من الفرس ، والذين بقوا حتى بعثته (ﷺ) ثم أرسل كسرى إلى عامله على اليمن ذكر له أن كذابا في مكة ادعى النبوة ، فاذهب فاستتبه ، وإلا فابعث لي برأسه ، وعندها حمل الرجل رسالة سيده إلى النبي الأكرم (ﷺ) الذي ذكر للفرس أن كسرى سيموت في يوم كذا في شهر كذا ، وكان الفرس في اليمن من التعقل والحنكة بحيث توقفوا عن تنفيذ أوامر سيدهم انتظارا لما سيكون من أمره.

وبالفعل مات كسرى في اليوم الذي حدده سيد الخلق ، وهنا أرسل القائد الفارسي بازان بإسلامه وإسلام من معه من الفرس سائلينه (ﷺ) إلى من نحن يا رسول الله ؟ قال لهم :

أنتم منا وإلينا آل البيت [1].

(1) راجع كتابنا : قراءة المستقبل في أحاديث النبي الأكرم ، ... ص١٢٦.

على أي الأحوال اضطررنا اضطرارا لهذه الاستطرادة لنفسر للقارئ مسألة ولادة الأحباش في اليمن.

مرة أخرى عودة إلى السماع لنوكد على الاعتماد على ما رواه الثقاة فقط ، دون سواهم.

أما المسموع فإنه ينقسم إلى مطرد وشاذ ، الأول : ما استمر من الكلام في الإعراب وغيره من مواضع الصناعة مطردا ، والثاني : الشاذ ما فارق عليه بابه ، وانفرد عن ذلك إلى غيره.

الاطراد والشذوذ أربعة أضرب :

١ـ مطرد في القياس والاستعمال معا ، وهو الغاية المطلوبة ، نحو : قام زيد ، ضربت عمرا ، مررت بسعيد.

٢ـ مطرد في القياس شاذ في الاستعمال نحو الماضي من : يذر ويدع ، وقولهم : مكان مبقل ، هذا هو القياس ، لكن الأكثر في السماع مكان باقل ، وإن كان الأول مسموع أيضا.

٣ـ مطرد في الاستعمال شاذ في القياس ، نحو : (استحوذ ـ استنوق الجمل ـ استصوبت الأمر ـ أبي يأبى) بفتح الباء في كليهما ، في حين نجد القياس ـ فيما سبق ـ الإعلال في الثلاثة ، وكسر عين الأخير (أبي يأبى) لا فتحها.

٤ـ شاذ في القياس والاستعمال معا ، كقولهم : ثوب مصوون ، فرس مقوود ، رجل معوود من مرضه.

ولكن ما معنى المطرد ؟ المطرد هو الذي لا يتخلف أبدا ، يليه الغالب ، وهو

أقل من المطرد ، وهو ما نجده في أكثر الأشياء ، لكنه يتخلف أحيانا ؛ والكثير أقل من الغالب ، والقليل دون الكثير ، أما النادر فهو أقل من القليل [1].

ونحن ملزمون ملتزمون بالمطرد والغالب والكثير ، أما القليل والنادر فلنا الخيار في أخذه أو رده.

ومرة أخرى يعود السيوطي مرة أخرى ليتساءل : هل تؤخذ العربية من غير المسلم ؟ ثم ينقل عن عز الدين بن عبد السلام قوله :

اعتمد في العربية على أشعار العرب وهم كفار لبعد التدليس ، كما اعتمد في الطب وهو في الأصل مأخوذ عن قوم كفار كذلك ، فعلم أن العربي الذي يحتج بقوله لا يشترط فيه العدالة ، لكن يشترط في راوي ذلك ، وكثيرا ما يقع في كتاب سيبويه وغيره : حدثني من لا أتهم أو من أثق به ، وينبغي الاكتفاء بذلك.

وينتقل السيوطي إلى مسألة مهمة ، هي : هل يقبل المسموع الفرد ؟ ويجيب صاحب الاقتراح : هذا المسموع الفرد أحواله :

١- لا نظير له من الألفاظ المسموعة ، مع إطباق العرب على النطق به ، فهذا يقبل ويحتج به ، ويقاس عليه إجماعا مثل النسب إلى شنوءة على (شنئي) وليس : (شنوني) إذ الأول (شنئي) لم يسمع غيره ، ولم يسمع أيضا ما يخالفه ، بل أطبق العرب على النطق به.

٢- المتكلم فرد واحد من العرب ويخالف ما عليه الجمهور ، فينظر في حال هذا العربي ، فإن كان فصيحا في جميع ما عدا ما انفرد به ، وكان ما أورده مما

(1) الاقتراح ، ص٦١ وبعدها.

يقبله القياس ، إلا أنه لم يرد به استعمال إلا من جهته فالأولى أن يحسن به الظن [1].

على أية حال فإن أبا عمرو بن العلاء البصري قال : (ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كبير) وبرغم هذا كان التراث العربي مما قالت العرب ضخما وعملاقا.

ولكن ترى ما سبب وافر علم الكوفة بالشعر ؟ يقال : إن النعمان بن المنذر - ملك الغساسنة - أمر فنسخت له أشعار العرب في الكراريس ، ثم دفنها في فناء قصره ، فلما كان المختار [2] بن أبي عبيد الثقفي - رحمهما الله - قيل له : (إن تحت القصر كنزا) فاحتفره ، فلما فتحه أخرج تلك الأشعار ، فمن ثم تجد أهل الكوفة أعلم بالشعر من أهل البصرة ، قال أبو الفتح عثمان بن جني : الكوفيون علامون بأشعار العرب مطلعون عليها ، قال أبو حيان الأندلسي : في مسألة العطف على الضمير المجرور من غير إعادة الجار الذي يختار جوازه لوقوعه في كلام العرب كثيرا ، شعرا ونثرا ، وأضيف وفي القرآن كما سبق.

ويقرر أبو حيان أيضا : لسنا متعبدين بإتباع مذهب البصريين ، بل نتبع الدليل.

علل النحاة إذن في غاية الوثاقة [3] ، عكس ما يتصور بادي الرأي وغفلة العوام ، إن هذي العلل أقرب إلى علل المتكلمين منها إلى علل المتفقهين.

ولعل وجه الحكمة لا يظهر في الحكم النحوي ، فكما أن الفقيه إذا عجز عن

(1) السابق ، ص٦٤.
(2) قائد ثورة التوابين الذين قتلوا كل من اشترك في فاجعة كربلاء (ت ٦٧ هـ).
(3) الاقتراح ، ص٨٤.

تعليل الحكم الفقهي قال : هذا أمر تعبدي ، فإن النحوي - أيضا - إذا عجز قال هذا أمر مسموع.

ولو كانت العربية حشوا مكيلا ، وحثوا مهيلا ، لكثر خلافها ، وتعادت وتضاربت أوصافها ، فجاء عنهم جر الفاعل ، ورفع المضاف إليه ، والنصب بحروف الجزم.

العلل في لغتنا نوعان ، علة تطرد على كلام العرب ، وتنساق إلى (قانون) لغتهم ، أي منطق لغة العرب ، وعلة تظهر حكمتهم وتكشف عن صحة أغراضهم ومقاصدهم في موضوعاتهم.

إن أكثر العلل مبناها على الإيجاب بها ، أي الوجوب ، مثل :

- نصب الفضلة وما شابهها.
- رفع العمدة.
- جر المضاف إليه وغير ذلك.
- في إعراب الأفعال الخمسة تخفف من الحركة الإعرابية حتى لا تشغل المتكلم والسامع ، النون المفتوحة أوضح في السمع من الحركة القصيرة - للإعراب - فهذه الحركة عنصر واحد ، أما النون المفتوحة فمقطع مكون من عنصرين النون والفتحة.
- الأسماء الخمسة إعرابها بتطويل الحركة القصيرة تفاديا لتوالي الحركات القصار ، أو المقاطع القصيرة المفتوحة ، بدلا من :
  - جاء أبه.
  - رأيت أبه.
  - مررت بأبه.

بدلا من هذا ، بدلا من توالي ٤ حركات أو ٤ مقاطع قصيرة نقول :

- جاء أبوه.
- رأيت أباه.
- مررت بأبيه.

ولكن ترى ما الفرق بين العلة والسبب ؟ العلة موجبة ، والسبب مجوز ، مثال التجويز جواز أقتت / وقتت ، بالهمز أو الواو ، وهكذا كل موضع جاز فيه إعرابان أو أكثر ، كالذي يجوز جعله بدلا وحالا ، وذلك النكرة بعد المعرفة ، هي هي في المعنى ، تقول : مررت بسعيد رجلٍ صالح / مررت بسعيدٍ رجلا صالحا ؛ فإن علته لجواز ما جاز لا لوجوبه ولزومه.

ولكن ترى : ما الفرق بين علل اللغويين وعلل المتكلمين وعلل الفقهاء ؟ يجوز تخصيص علل اللغويين ، فإنها وإن تقدمت علل الفقه فأكثرها يجري مجرى التخفيف والفرق ، فلو تكلف متكلف نقضها لكان ذلك ممكنا ، وإن كان مستثقلا على غير قياس ، كما لو حاولا تصحيح ياء (ميزان) و (ميعاد) ونصب الفاعل ، ورفع المفعول ، وليست كذلك علل المتكلمين ، هي متقدمة على علل المتفقهين.

علل اللغويين على ضربين :

١- واجب لابد منه ؛ لأن النفس لا تطيق في معناه غيره ، وهذا لاحق بعلل المتكلمين ، مثل :

- تقدير الحركات في المقصور.
- قلب الألف واوا للضمة قبلها ، وياء للكسرة قبلها.
- منع الابتداء بساكن ، ولا بحركة ألبتة.
- الجمع بين ألفي المد ، أو بين الحركتين بشكل عام.

كل هذا مما لابد للطبع منه.

٢- ما يمكن تحمله على استكراه ، وهو لاحق بعلل الفقهاء ، إذ يمكن النطق به على مشقة ، مثل :

- قلب الياء واوا بعد الكسرة ، مثل عصافر التي تنطق (عصافير) بالياء ، إلا أنها يمكن أن تكون (عصافور) بالواو المدية ، ولكن يكره ذلك ، إذ هو ليس في العربية.
- تقدير الضمة والكسرة في المنقوص ، وظهور الفتحة ، وعدم ظهور الحركتين الأخريين [1].

ومن نافل القول أن قواعد العربية منطقية جدا ، ومبررة ، كيف ؟ :

- لماذا حذف التنوين من العلم الموصوف بابن ؟ لكثرة الاستخدام.
- علة إعراب المضارع ؟ ربما لتوزعه بين الحال والاستقبال ، وخلوص الماضي للزمن الماضي ، والأمر للمستقبل.
- تعليل سكون آخر الفعل (الفعل المسند إلى ضمائر الرفع المتحركة - تاء الفاعل - نا الفاعلين - نون النسوة) سواء أكان الفعل في المضارع أو الماضي أو الأمر ، السبب والعلة عدم توالي ٤ متحركات ، أو عدم توالي المقاطع القصيرة المفتوحة ، نوع من إعادة هندسة مقاطع الكلمة.
- لماذا بنيت : (حزام - قطام - رقاش) ؟ بسبب التعريف والتأنيث ، والعدل ، إذ هي صيغة خاصة ، وربما أيضا بسبب كثرة الاستخدام.
- لماذا لم يجمع بين لام التعريف وبين التنوين ، وكذا الإضافة والتنوين ؟ الأخير دال على التنكير ، في حين تدل لام التعريف والإضافة على التعريف ، التعريف نقيض التنكير ، لذا لم تجمع أداتان لكل منهما.

(1) الاقتراح ، ص١١٢.

وفي الإعراب منطق واضح باده :

- الأصل والواقع للحروف هو البناء فقط ، ليس إلا.
- الأفعال كلها مبنية عدا المضارع إذا لم تتصل نون النسوة ولا نون التوكيد.
- الأصل في الاسم الإعراب ، البناء فيه استثناء.
- لا يجوز الجر بحرف محذوف إلا إذا دل على حذفه دليل.

ولكن ماذا لو تعارض مجمع عليه مع مختلف عليه ؟ أخذنا بالمجمع عليه ، قال السيوطي [1] : (فهو أولى) والرأي : كلاهما صح مثل قصر الممدود أو مد المقصور.

ونختم اقتباساتنا من اقتراح السيوطي بقوله :

إذا ورد عن عالم قولان - أي متعارضان - أخذنا بالرأي المعلل ، وأهملنا الآخر.

وقد اقتبسنا جل شروح هذي المادة من اقتراح السيوطي اعترافا بفضل هذا الكتاب صغير الحجم - كبير الأهمية والفائدة والجدوى - وحبذا لو اهتم به الباحثون والأساتذة ، ودرس للطلاب خاصة في مرحلة الدراسات العليا، وهنا يجب أن أشيد بتدريس هذا الكتاب المقرر على طلاب الدراسات التمهيدية للماجستير في جامعة جالا ، وكم أتمنى أن أقوم بتدريسه للطلاب.

ولله الأمر من قبل ومن بعد ، والآن إلى المدة التالية من دستور لغتنا العربية.

---

(1) الاقتراح ، ص١٥٩.

الفصل الخامس

البلاغة

المادة الخمسون
{٥٠}

الكلمة العربية المفردة تتميز بالفصاحة ، فما هي مواصفات هذه الفصاحة والتي فصلها علماء العربية ، خاصة علماء البلاغة.

وضع علماء العربية سيما البلاغيين مواصفات المفردة الفصيحة ، نعدد هذي المواصفات ونذكر ما تيسر من أمثلة وشواهد ، لكن ليس قبل أن نسطر اقتباسين من الدكتور إبراهيم أنيس والعلامة العقاد ، رحمهما الله :

أولا ـ الدكتور إبراهيم أنيس : في كتابه الثمين (موسيقى الشعر [١]) يقول : (الأمية في العرب ـ قبل الإسلام ـ كان لها دور كبير في صبغ الألفاظ العربية والأساليب بصبغة موسيقية لاعتماد القوم على الأذن في التلقي ، والألسنة في الأداء ، فمرنت تيك الألسنة وأرهفت تلكم الأذن ، فمالت إلى الجرس الجميل ، كما أضحت الألسنة ذلقة لبقة ، تنطلق بأصوات اللغة بوضوح وتطريب).

كل هذا مهد لنزول القرآن الكريم في بداية القرن السابع الميلادي ، وكل هذا أيضا جعل العربية لغة شاعرة ، كما ذكرنا قبلا أكثر من مرة.

ثانيا : صاحب كتاب اللغة الشاعرة : يعرف الفصاحة بأنها امتناع اللبس ، وهذا ما اتسمت به العربية ، كيف ؟ يعود أسباب عدم اللبس بما يلي :

(1) ص ٢٧٩.

١- ليس في العربية صامت يلتبس بين مخرجين.

٢- ليس بها صوامت مركبة غير الجيم القرآنية المركبة ، أما الآخر - الكاف المركبة - فلا نجده في الفصحىٰ ، بل في العامية ، كما في بعض اللهجات الكويتية والعراقية ، وبعض القرى في محافظة الشرقية.

٣- لا تزدحم صوامت العربية على مخرج واحد ، كما نجد الفاء المهموسة والمجهورة ، والباء المجهورة والمهموسة ، كما في غيرها من اللغات ، والتي أهملت مخرج الحلق للعين والحاء ، وكذا أقصى الحنك مع أقصى اللسان في الغين والخاء ، ما أتاح في العربية مساحة أكبر من جهاز النطق الذي يبدأ من الشفتين إلى الحنجرة ، ومن ثم نجد في العربية :

٤- جوهر الصوت سليما في مجراه من جهاز النطق وفي موقعه من السمع لحسن استخدام جهاز النطق ودقة التمييز بين الأصوات المتشابهة أو المتقاربة ، فقد يتقارب الصامتان حتى يقع بينهما الإبدال ، فلا التباس بين الدال والذال ولا بين الحاء والعين ، ولا بين التاء والثاء ، ولا بين أصوات الإبدال بشكل عام ، جوهر كل صوت برغم كل هذا مستقل واضح الاستقلال في السمع.

٥- لسان العرب المبين لا لبس بين حركاته ، فلا لبس بين الفتح والضم والكسر [(١)] موقع كل حركة متباعد جدا عن الحركة الأخرى ، هذا التباعد الشديد يمنع اللبس والخلط بين تيك الحركات، كما أن العربية الفصحى تمثل بحركاتها الثلاث أبسط نظم الحركات في دنيا لغات العالم قاطبة قاطبة ، تلك الحقيقة التي أقرها عالم الأصوات ج. د. أكونر تلميذ دانيال جونز صاحب نظرية الحركات المعيارية.

(1) اللغة الشاعرة ، ص٤١ وقبلها.

i u [1]

α

والآن نسطر مواصفات الفصاحة التي اشترطها البلاغيون للكلمة العربية ، فنقول :

١- المفردة التي تقسم بالفصاحة يجب أن تخلو من اجتماع المثلين من غير إدغام ، كما في قول الشاعر : الحمد لله العلي الأجلل

ولعل الوزن هنا هو ما أجبر الشاعر على هذه الصيغة (الأجلل) بدل (الأجلّ) باللام المشددة.

وكما في قول القائل : (اللهم اغفر لي خطائني) بهمزتين ، حيث لا إدغام للهمز في العربية ، ولكن هناك صيغة أخرى كان يمكن استخدامها ، هي (خطاياي) بدل : (خطائني).

كذا تخلو الكلمة الفصيحة من التقارب المتكرر والشديد في المخارج ، سئل أعرابي عن ناقته فذكر أنها ترعى :

الهعخع

تقارب في مخارج أصوات الكلمة ما [2] بين الحنجرة للهاء ، والحلق للعين ، وأقصى الحنك مع أقصى اللسان في الخاء ، ثم الحلق مرة أخرى مع العين ، مخارج متقاربة شديدة التقارب هي الحنجرة والحلق وأقصى الحنك ، ولشدة هذا التقارب اعتبرها علماء العربية القدماء مخرجا واحدا هو الحلق.

---

(1) التباعد واضح شديد الوضوح بين حركات العربية ، ومن ثم لا خلط بينها البتة على اللسان أو في السمع.
(2) الجرجاني : الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة ، تحقيق د. عبد القادر حسين ، القاهرة ١٩٨٢م ، ص٤.

٢ـ أن تخلو من الغرابة ، فإن المألوف محبوب مأنوس ، غير مكروه ، هذا عيسى ابن عمر النحوي وقع عن حماره فاجتمع عليه الناس فقال لهم :

مالكم تكأكأتم عليّ تكأكؤكم على ذي جنة ، افرنقعوا أي : اجتمعت علي .. تنحوا.

ومنه : (الدردبيس ـ المرمريس) أي : الداهية.

٣ـ أن لا تكون مغرقة في العامية ، مثل كلمة (فطير) في قول عبد العزيز بن نباته :

أقام قوام زيغ قناته   وأنضج كي القرح وهو فطير

تيك الكلمة الأخيرة عامية مبتذلة ، وقد هجنت البيت وأذهبت بحلاوته وطلاوته.

٤ـ أن لا يكون للكلمة المستعملة معنى آخر يكره ذكره ، فلا تكون من الكلمات المحظورة التي يأبى الحياء أن يمسها أو يتكلم بها ، وهو ما يسمى بالحظر أو اللامساس taboo ، مثل :

ـ كلمة (الكنيف) في قول عروة بن الورد :

قلت لقوم في الكنيف تروحوا عشية بتنا عندما [(1)] وان رزّح الكنيف

أصله الساتر إلا أنه يطلق على بئر الغائط ومحله ، فهي كلمة غير مناسبة.

ـ ومثل كلمة (غائط) في بيت عمرو بن معد يكرب :

وكم من غائط من دون سلمى   قليل الأنس ، ليس به كتيع

وليس به كتيع ، أي ليس به أحد ، حتى كلمة (كتيع) هي الأخرى غير مناسبة وخاصة أن البيت غزل في سلمى.

---

(1) تروحوا ساروا بالرواح أي : العشي ، ما وان: وادٍ فيه ماء ، رزّح : سقطوا من الإعياء والبيت مطلع قصيدة يذكر فيها عروة الشدة التي كان فيها أهل الكنيف ، وقيامه بأمرهم حتى صلحوا.

٥- أن لا تكون الكلمة فارعة الطول ، يخرجها عن حد الاعتدال فقد سبق أن الكلمة العربية ربعة بين كلمات اللغات ، لا هي بالطويلة الرهبرة ، ولا بالقصيرة ألمكعبرة.

- مثال الكلمات الخارجة عن حد الاعتدال :

(مغناطيسهن) في بيت ابن نباته :

فإياكم أن تكشفوا عن رءوسكم　　　إلا إن مغناطيسهن الذوائب

- أو (أذربيجان) كما في بيت الشعر نفسه :

فلأذربيجان اختيال بعد ما　　　كانت معرّس عبرة ونكال

- وكلمة (سويداواتها) في قول المتنبي :

إن الكريم بلا كرام منهُم　　　مثل القلوب بلا سويداواتها

٦- وقد تكون الكلمة في حد ذاتها فصيحة ، لاشية فيها ، ولكن إذا نتج تقارب في المخارج ، أو جاءت صوامت متماثلة لأكثر من كلمة متجاورة فإن هذا ما يفقد الكلمات فصاحتها ، ومما يذكر مثالا على فقد تلك الفصاحة هذا البيت المنسوب (١) إلى الجاحظ :

وقبر حرب بمكان قفر　　　وليس قرب قبر حرب قبر

هذا البيت مكون من ١٢ كلمة ، تكررت كلمة قبر ثلاث مرات ، ثم كلمة (قرب) وفيها نفس الصوامت أو نفس صوامت (قبر) فقط تغير ترتيب مادة الكلمة : (ق ب ر) أصبحت : (ق ر ب) ثم (قفر) التي تتجانس كثيرا مع كلمة (قرب) أصولها : (ق ر ب) وأصول الأخرى (ق ف ر) فالاختلاف طفيف بين صوامت الكلمتين.

(1) الإشارات ... الجرجاني ، ص١١ وقبلها.

وهكذا يتكرر صوت الراء في البيت سبع مرات ، ثم الباء ست مرات ، ثم القاف خمس مرات ، كل هذا التكرار للكلمات أو ما جانسها والصوامت وضع إرباكا شديدا للبيت ، وحرم كلمات ذياك البيت الفصاحة.

٧- ويضيف صاحب الصناعتين [1] بعدا آخر لفصاحة الكلمة ، والكلام بشكل عام ، كيف ؟ إذا كان موضوع الكلام وهدفه الإفهام ومنع اللبس فالواجب تقسيم طبقات الكلام على طبقات الناس فيخاطب السوقي بكلام ومفردات السوقة ، والبدوي بكلام البدوي والعالم بكلام العلماء ، ولا يتجاوز به عما يعرفه إلى ما لا يعرفه ، فتذهب فائدة الكلام ، وتتعثر منفعة الخطاب ، بل ينبغي أن يقف عند منتهى علمه.

٨- بقي لدينا إشارة عجلى إلى ما قال السيوطي في شان فصاحة الكلمة ، والتي نلخصها فيما يلي :

أ - يعرف الفصاحة في المفرد - أي في الكلمة المفردة - بأنه التخلص من تنافر (الحروف) أي : الصوامت ، كما في (الهعخع) مثلا.

ب- متى تثقل الحروف ؟ - أي الصوامت - إذا تقاربت مخارجها كانت أثقل على اللسان منه إذا تباعدت.

إن وحده المخرج - أو تقاربه - يمكن أن يؤدي إلى تحول الصوامت إلى بعضها كما في :

- أراق ← هراق.
- أأنتم ← أهنتم.
- مدحه ← مدهه.

(1) كتاب الصناعتين الكتابة والشعر ، تحقيق محمد قميحة ، بيروت ١٩٨٤ ، ص٣٩.

ويرى السيوطي أنه إذا تباعدت المخارج حسن التأليف ، ولا تجيء ثلاثة صوامت من مخرج واحد في كلمة واحد لصعوبة ذلك على العرب ، كما لا يجتمع المثلان لشدة تقاربهما إلا إذا كان إدغام.

جـ ويتحدث السيوطي حول حجم الكلمة ، فيذكر أن الثلاثي أحسن من الثنائي ومن الأحادي ، وأيضا من الرباعي والخماسي ، إذ من شروط الفصاحة أن تكون الكلمة متوسطة بين قلة صوامتها وكثرتها ، والمتوسطة على ثلاثة صوامت.

فإن جاءت على صامت واحد قبحت ، مثل الأمر من (وقى) إنه (قِه) بكسر القاف ، ولذا اتفق العلماء على وجوب هاء السكت لها قولا واحد ، فتقول : (قهْ) بسكون الهاء بعد القاف المكسورة ، ولا تقول : (قِه) بكسر القاف دون هاء.

فإن كانت على صامتين (حرفين) لم تقبح ، كما في (لم يَقِه) بكسر القاف ، وفتح الياء قبلها ، ولذا اختلف العلماء في وجوب هاء السكت أو جوزاها ، أما الكلمة على (حرف واحد) أي على صامت واحد ، فإن العلماء جميعا أجمعوا على وجوب الهاء لها لدعم الكلمة لأنها تصبح ضعيفة قبيحة على صامت واحد فقط ، ومن هنا كان لابد لابد من دعمها بهذه الهاء الداعمة ، هذا الوصف أدق من وصفها بهاء السكت ، هذا ما نراه.

المادة الحادية والخمسون
{٥١}

في العربية نقاط مشتركة وشواهد مشتركة بين النحو وبين البلاغة وهو ما تتكفل به شروح هذي المادة ، بل إن الدرس البلاغي برمته يدخل من أوسع الأبواب إلى رحابة الدرس اللغوي واتساعه .

في قصة ارتباط البلاغة بالنحو نرى أن الدراسة البلاغية خرجت من عباءة النحو ، وتربى البلاغيون في أحضان النحاة وبصحبتهم ، وهذى اقتباسات ، بها نبدأ شروح هذي المادة :

١- أبو سعيد السيرافي : يتحدث عن علم المعاني في البلاغة ، فيرجعه إلى اسمه الأول : (معاني النحو : منقسمة بين حركات اللفظ وسكناته وبين وضع الحروف في مواضعها المقتضية لها وبين تأليف الكلام بالتقديم والتأخير وتوخي الصواب في ذلك وتجنب الخطأ في ذلك ، وإن زاغ شيء عن النعت فإنه لا يخلو أن يكون سائغا بالاستعمال النادر والتأويل البعيد ، أو مردودا لخروجه عن عادة القوم الجارية على فطرتهم [1]).

(1) الأسلوبية والبيان العربي للدكتور محمد عبد المنعم خفاجي وآخرين ، القاهرة ١٩٩٢ ، ص٤٥.

٢- النظم من خصائص التراكيب في إفادة المعاني والأغراض أو كما قال عبد القاهر : (توخي معاني النحو ومباحثه التي عرفت بعلم المعاني [1]).

إن النظم الذي كتب عنه عبد القاهر في دلائل الإعجاز إنما نبت أولا في بيئة النحاة ، وكان له من بحثهم نصيب غير قليل ، لكن ليس على أنه فن من فنون البلاغة ، وإنما وقع لهم أنه من النحو بحسب كانوا يتصورونه أولا.

الشيخ عبد القاهر نفسه أكثر في كتابه دلائل الإعجاز من النقل عن النحاة ، والاستشهاد بأقوالهم والبناء على أصولهم وفضولهم عن التقديم وأغراضه ، وقد افتتحها بما نقل عن سيبويه من دلالة التقديم على الاهتمام.

إذن فتقديم الكلمة في الجملة دلالته (وظيفته) الاهتمام بها ، بل إن عبد القاهر نقل عن النحاة تفسير معنى الاهتمام ، ثم اعتبر هذا أصلا في هذا الباب.

وهذي أمثلة للمعالجات النحوية عند الشيخ الجرجاني :

- ما الفرق بين قول العرب :

عبد الله قائم

إن عبد الله قائم

إن عبد الله لقائم

في الجملة الأولى إخبار ، وفي الثانية إجابة سائل ، وفي الثالث جواب على منكر.

فالبحث إذن في خصائص التراكيب وأسرارها وجد أولا عند النحاة ، وكان من جملة النحو عندهم قبل أن تتميز فنون العربية ، ويعرف اختصاص كل فن وحدوده ، وكتاب سيبويه مشحون بأمثال المباحث التي تعرض لها عبد القاهر.

---

(1) السابق ، ص٦٧.

الرجل نفسه كان على خبرة عميقة واطلاع واسع على النحو ، وهو ما يفسر معالجته الدقيقة لقضية النظم وخواصه وأسراره ودقائقه ولطائفه ، فاستطاع بذوقه الدقيق المتمكن وطبعه القوي المتفوق أن يتتبعه في صوره الكثيرة وأوضاعه المختلفة وأن يبرز من محاسنه ويرفع من قدره.

مرة أخرى مع تعريف عبد القاهر للنظم بأنه تعلق الكلم بعضها ببعض بسبب من بعض ، ونحن نفسر هذا التعلق بأنه نوع من الارتباط بين كلمات الجملة أو النص.

عبد القاهر يقسم أنواع ذياك التعلق إلى ثلاثة أضرب :

أ ـ تعلق اسم باسم.

ب- وتعلق اسم بفعل.

ج- وتعلق حرف باسم أو فعل.

ويلاحظ أن جعل تعلق الحرف بكل من الاسم والفعل كتعلق الاسم بالاسم وتعلق الاسم بالفعل ، ولم يحصر الحرف في زاوية ضيقة ودور هامشي تكميلي مقارنة بالأفعال والأسماء.

٣- ومن علم المعاني أو معاني النحو نعرج على البديع ، والذي يبدو للباده بعيد الشقة والعلاقة مع النحو فنقتبس من إحدى الدراسات في علم البديع [1] ، وحديث عن المشاكلة وإحدى صورها ، ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوفه في صحبته تقديرا ، قال الله تعالى : (صِبْغَةَ اللَّهِ ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ [2]) ذهب الزمخشري إلى أن (صبغة) مصدر مؤكد ،

(1) د. أحمد محمد علي ، دراسات في علم البديع ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص١١٧ وبعدها.
(2) ١٣٨ البقرة.

منتصب عن قوله : (آمنا بالله [1]) ومعنى : صبغة الله = تطهير الله ؛ لأن الإيمان تطهير للنفوس.

وذهب الأخفش إلى أن معنى : صبغة الله = دين الله ، وهي منتصبة على البدلية ، هي بدل من : (ملة) التي جاءت في آية سابقة لهذي الآيات هي قوله تعالى : (وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا ، قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [2]).

أما الكسائي فيرى أن كلمة (صبغة ...) منصوبة على تقدير : اتبعوا ، أو الزموا صبغة الله ، ولا مشاكلة إلا على وجه واحد ، هو ما ذهب إليه الزمخشري اعتمادا على سيبويه.

على أية حال فإن سبب نزول الآية أن النصارى كانوا يصبغون أولادهم في ماء أصفر يسمونه المعمودية ، ويزعمون أنه تطهير لهم ، وبه يدخلون النصرانية ، فالصبغة المذكورة في الآية الكريمة جاءت في صحبة صبغة النصارى لأولادهم ، كما اتضح من سبب نزول الآية ، ومن هنا كانت المشاكلة تقديرية.

مثال آخر مما نحن فيه من المشاكلة قوله تعالى : (يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ۞ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ) [3] قرأ حمزة والكسائي بجر (وحور عين) عطفا على (أكواب) قال الفراء : يجوز الجر عطفا على الإتباع في اللفظ ، وإن اختلفا في المعنى لأن الحور لا يطاف بهن ، كما قال الشاعر :

إذا ما الغانيات برزن يوما ... وزججن الحواجب والعيونا

---

(1) في الآية ١٣٥ من ذات السورة.
(2) آية ١٣٥.
(3) آية ١٣٥.

أي : زججن الحواجب وكحلن العيونا ، وهذا مثل : علفتها تبنا وماء باردا ، المعنى : علفتها تبنا ، وسقيتها ماء باردا.

الشاهدان السابقان قرأتهما في شواهد النحو ، عطف عامل قد حذف وبقي معموله منصوبا ، مثل : (وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ [1]) أي سكنوا دار الهجرة - المدينة - وألفوا الإيمان ، حيث إن الفعل (ألفوا) العامل قد حذف ، وبقي معموله ، وهو الإيمان [2] ، ألم أقل بأن هناك شواهد مشتركة بين النحو والبلاغة ، ما سبق مثال فقط.

٤- وهذا اقتباس رابع من الدكتور [3] شوقي ضيف - رحمه الله - يتحدث عن عبد القاهر : ولد بجرجان ، كان فقيها متكلما أشعريا شافعيا ، لزم نزيل بلدته أبا الحسن الفارسي ابن أخت أبي علي الفارسي الذي كان يعد إمام النحاة بعد خاله (أبي علي).

عكف الجرجاني على دروس (أبي الحسن) وأخذ عنه علمه ، ولعل هذا ما جعله يؤلف في النحو كتابه (العوامل المائة) إذن فالبداية وبدء التلمذة كان في النحو وعلى أيدي النحاة.

إلا أن عبد القاهر دوت شهرته بكتاباته البلاغية سيما نظرية النظم ، الجرجاني يرى أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام ، وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة ، ولابد مع الضم أن يكون لكل كلمة صفة (وظيفة) وقد تكون هذه الصفة بالمواضعة ، وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه ، وقد تكون بالموقع

---

(1) ٩ ، الحشر.
(2) الكامل لأحمد صفوت ١٣٩/٢.
(3) البلاغة تطور وتاريخ ، القاهرة ١٩٨٧ ، ص١٦٦ وبعدها.

(لاحظ الموقع مصطلح نحوي) يتمثل هذا في التقدم والتأخر والحركات التي تختص بالإعراب.

وينكر عبد القاهر أن يكون لبنية اللفظ وحسن النغم وعذوبة القول والاستعارة والمجاز وحدها دخل في الفصاحة التي هي مناط الإعجاز في القرآن ، استقر هذا كله في نفسه وآمن بأن التفسير الصحيح للإعجاز القرآني ينبغي أن يطلب في علاقات الكلام النحوية.

الجرجاني كان عالما نحويا كبيرا قد أشربت روحه في كل كتبه علم محمد الفارسي وخاله أبي علي وابن جني فاضطرمت مباحثهم في نفسه ، واضطرمت معها مباحث البلاغيين ومباحث الخطابة ونقد الشعر.

النظم بذلك هو معاني النحو ، إنه ليس إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه التي رسمت لك ، فلا تخل بشيء منها ، وذلك أنا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك :

- زيد ينطلق.
- ينطلق زيد.
- منطلق زيد.
- زيد المنطلق.
- المنطلق زيد.
- زيد هو المنطلق.
- زيد هو منطلق.

وفي الشرط والجزاء إلى الوجوه التي تراها في قولك :

- إن تخرج أخرج.
- إن خرجتَ خرجتُ.
- إن تخرج فأنا خارج.
- أنا خارج إن خرجت.
- أنا إن خرجت خارج.

وفي الحال إلى الوجوه التي تراها في قولك :

- جاءني زيد مسرعا.
- جاءني يسرع.
- جاءني وهو يسرع.
- جاءني قد أسرع.
- جاءني وقد أسرع.

فيعرف لكل من ذلك موضعه ، ويجيء به حيث ينبغي له ، وينظر في الحروف التي تشترك في معنى واحد ، ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى ، فيضع كل ذلك في خاص معناه ، نحو أن يجيء بما في نفي الحال ، وبلا إذا أراد الاستقبال وبإن فيما يترجح بين أن يكون أو لا يكون ، وبإذا فيما علم أنه كائن.

وينظر في الجمل التي تسرد فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل ، ثم يعرف فيما حقه الوصل بالواو أو الفاء أو ثم ن وموضع (أو) من موضع (أم) وموضع (لكن) من موضع (بل) ويتصرف في التعريف والتنكير والتقديم والتأخير في الكلام كله ، وفي الحذف والتكرار والإضمار والإظهار فيضع كلا من ذلك في مكانه ، ويستعمله على الصحة ، وعلى ما ينبغي له.

كل هذا من كلام عبد القاهر نجد فيه مباحث علم المعاني تدخل من أوسع الأبواب ، وإضافة إلى ما سبق فقد تحدث عبد القاهر عن الإسناد والمسند إليه وما يجريان فيه من صور كثيرة ، لك صورة دلالتها الخاصة.

مرة أخرى يعود الحديث إلى الحرف وأهميته مشاركة لقسيميه الاسم والفعل ، تأكيدا لأهمية الحرف ، وبعدا ونفيا لفكرة تسوق لدور هامشي مساند فقط للفعل أو الاسم ، إذ للحرف خصائص دقيقة دقيقة ، والنفي بما غير النفي بلا ، واستخدام إن الشرطية غير إذا ـ كما سلف ـ وكذا تختلف مواضع حروف الوصل كالعطف وغيره ، إذ لابد معها من معرفة مواضع الفصل والوصل بين العبارات.

وفي تعليق لعبد القاهر على شعر البحتري ذكر أن الشاعر :

- قدم وأخر.
- عرف ونكر.
- حذف وأضمر.
- أعاد وكرر.

وهو ـ في النهاية ـ توخى في الجملة وجها من الوجوه التي يقتضيها علم النحو ، فأصاب في ذلك كله ، ثم لطف موضع صوابه ، فأتى مأتى يوجب الفضيلة [1].

٥- ونختم المقتبسات باقتباس سريع من الشيخ عبد القاهر نفسه من أحد مؤلفاته (دلائل الإعجاز في [2] علم المعاني) حيث يقول : وجملة الأمر أنه لا يكون كلام من حرف أو فعل أصلا ، ولا من حرف واسم إلا في النداء ، مثل : (يا

---

(1) السابق ، ص١٦٩ وقبلها.
(2) نشر بالقاهرة ١٩٦٠ ، ص١٥.

عبد الله) أي : أعني وأريد وأدعو ، و(يا) أو غيرها من حروف النداء دليل على هذي الأفعال ، أو دليل على النداء وعلى قيام معناه في النفس.

فهذي الطرق والوجوه في تعلق الكلم بعضها ببعض - وهي كما تراها - معاني النحو وأحكامه.

وننتقل من المقتبسات الصريحة إلى سياحة لدى البلاغيين نتلمس فيها مرة أخرى الصلة الوثقى بين النحو وبين البلاغة :

١- مرة أخرى نتحدث عن تعريف علم المعاني ؟ إنه علم مستخرج من تتبع خواص تراكيب البلغاء بالطبع ، كما أن النحو : علم مستخرج من كلام الأعراب المتكلمين كلاما صحيحا بالطبيعة ، ولذلك صار العلماء الذين تناولت موضوعات علومهم بحث الطبيعة تلامذة للطبع ، قال السكاكي : علم المعاني هو تتبع خواص تراكيب الكلام ن وهو ما ينحصر في ثمانية أشياء : (أحوال الإسناد الخبري - أحوال المسند إليه - أحوال المسند - أحوال متعلقات الفعل - القصر - الإنشاء - الفصل والوصل - الإيجاز والإطناب).

وقبل أن نذكر بعض تفاصيل ما سبق نشير إلى أمرين :

الأول - إن علم المعاني تعكف بحوثه على موضوعات النحو ، وهو ما اتضح أو انحصر في الموضوعات السابقات.

الثاني - النحو مقتبس من الأعراب ، أو شواهده من كلاه الأعراب في حين علم المعاني مقتبس من تراكيب البلغاء.

النحو يمثل مستوى الصحة فقط ، علم المعاني يرقى بالصحة إلى درجة الإتقان الشديد والبلاغة ومسحة من الجمال والتأنق ، النحو بمثابة سيارة عادية يقودها سواق عادي جدا ؛ لكنه يقود بشكل صحيح ، علم المعاني بمثابة سيارة رياضية متفوقة يقودها رياضي ماهر غاية المهارة.

أو قل النحو بمثابة طيارة التدريب العادية التي يقودها المتدرب من الطيارين ، أما علم المعاني فيمثل طائرة حربية معقدة يقودها طيار ماهر شديد المهارة ، وباقتدار شديد ، طيرانه بها كأنه العزف المحبب إلى النفوس.

والآن نشير إلى بعض التفاصيل في علم المعاني ، فمما يعرض للمسند إليه الحذف والاختصار عندما يرتفع الالتباس بوجود قرينة لفظية أو معنوية ، فكما يعرض الحذف للمسند يعرض الحذف للمسند إليه أيضا لوجود داعي التخفيف وزوال مانع الالتباس [1] بالعربية.

نفس هذا الكلام سبق عند الحديث في إطار النحو عن أن كل ما يفهم يحذف ، ولا يذكر.

٢- في كتب البلاغيين درس نحوي صريح صراح ، مثل قول محمد بن على الجرجاني تحت عنوان : (وهم أئمة النحو) إذ يرى الرجل أن وصف (لم) بأنها قالبة للمستقبل إلى الماضي مثل : (لم يقابل أخاه) هذا الوصف هو وهم توهمه أئمة النحو ، كيف ؟ المضارع مشترك بين الحال والاستقبال (لم) دالة هنا على الحال ، إذ المعنى : لم يتحدد ولم يحصل اللقاء في الحال ، واستفادة عدمه في الماضي بالعمل ، لا بالوضع.

(1) الجرجاني ، محمد بن علي (ت٧٢٩هـ) : الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة ، القاهرة ، ص٣٣ وقبلها.

٣- وتحت عنوان (الإخبار بالجملة) قال البلاغيون [١] : إذا أخبر بالجملة ، فإن أريد الحدوث أتى بالجملة الفعلية ، فإن أريد الثبوت أتى بالجملة الاسمية ، قال تعالى : (وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ [٢]) حيث قالوا أولا : آمنا ، أي حدثنا الإيمان ، ولكن مع شياطينهم قالوا : إنّا معكم ، أي ثابتون على ما كنا عليه ، ولو قالوا لشياطينهم (لم نؤمن) لم يك منا.

٤- وفي موضوع آخر هو تقديم المفعول يرى البلاغيون أنه يعرض للمفعول به أن يتقدم على فعله إما لكونه أهم ، مثل : لقاءَ الحبيب أتمنى أو للرد على من زعم غير ما تقصد مثل (أباك قابلت) أي مقابلي أبوك ، لا غير أبيك ، وتأتي مثل هذه الجملة عن تحقق إنكار وقوع الفعل ، وإنكار تعين المفعول ذاته ، و للتخصيص (أخاك عرفت ، أي : ما عرفت غير أخيك ، ومنه : (إياك نعبد ...) أي لا نعبد إلا إياك.

وحكم الجار والمجرور في إفادة التقديم التخصيص حكم المفعول به ، إذا قلت : بأخيك مررت ، أفاد : ما مررت إلا بأخيك ، ومنه قوله تعالى : (لإلى الله تحشرون [٣]) أي : لا تحشرون إلا إلى الله [٤].

ومن علم المعاني ننتقل إلى علم البيان لبيان جزء من ارتباط هذا العلم بالنحو فنقرأ للقارئ : الجملة إذا جاءت بعد المشبه به لم تخل من ثلاثة أوجه :

---

(1) السابق ، ص٧٥.
(2) ١٤ ، البقرة.
(3) ١٥٨ ، آل عمران.
(4) السابق ، ص٨٥.

١- أن يكون المشبه به معبرا عنه بلفظ موصول ، وتكون الجملة صلة ، مثل : أنت الذي من شانه كذا وكذا ، وكما في قوله تعالى : (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ [1] ...).

٢- أن يكون المشبه به نكرة تقع الجملة صفة له ، كما في الحديث الشريف : (الناس كإبل مائة ، لا تجد فيها راحلة) فجملة (لا تجد فيها راحلة) صفة للنكرة.

٣- أن تجيء الجملة مبتدأة إذا كان المشبه به معرفة ولم يك في الجملة الموصول (الذي) كما في آية [2] العنكبوت : (كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً) وهلم جرا [3].

على أية حال فإنا نقدم للقارئ قراءة سريعة مركزة لأحد كتب البلاغة ، التي تضمنت البيان والمعاني والبديع فنثبت ما يلي :

أولا : علم البيان :

١- التشبيه :

ويكون على عدة صور :

أ- ذكر المشبه والمشبه به وأداة التشبيه ووجه الشبه ، مثل : (وجهه مثل القمر في نوره).

ب- حذف أداة التشبيه أو وجه الشبه ن مثال الأول (أبو الحسن أسد في شجاعته) ومثال الثاني (علي كالأسد الهزبر).

ج- حذف أداة التشبيه ووجه الشبه معا ، مثل (حيدرة أسد).

---

(1) ١٧ ، البقرة.
(2) آية ٤١.
(3) عبد القاهر ، أسرار البلاغة في علم البيان ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص٨٣.

كل صورة لها تقييم بلاغي عند البلاغيين ، إلا أن هذي صور من تركيب الجملة ـ نحويا ـ في المقام الأول والأخير ، فإن ذكر وجه الشبه يغير من ملامح الجملة ، وكذا حذفه ، كما أن ذكر أداة التشبيه أو حذفها ما يؤثر في تركيب الجملة وهندستها ، ما يوجب أن نعيد دراسة التشبيه نحويا وتركيبيا.

أما أداة التشبيه فإن البلاغيين يقسمونها إلى حرف [1] وغير حرف ، فالحرف هي الكاف نحو (هاشم كالأسد) وكأن نحو : (كأن هاشما الأسد) وإن كانت الكاف هي الأصل ، ولذا قال الزمخشري : (كأن عليا الأسد) أصله : إن عليا كالأسد ، فيكون الفارق تأكيد التشبيه وعدم تأكيده [2].

وغير الحرف اسم وفعل ، فالاسم هو مثل وشبه ، وما اشتق منهما ، والفعل نحو (علمت عليا أسدا) وإن أريد ظن التشبيه قيل (ظننت الزوج أسدا).

الواضح الواضح هنا أننا في إطار النحو ، فكل أداة من هذي الأدوات حرفا أو اسما أو فعلا تقتضي حتما ولزما وضرورة تغييرا في تركيب الجملة بلا شك.

وقد وصلت الدقة بالبلاغيين إلى حد أنهم فصلوا ما يأتي بعد الكاف ، فإذا كان التشبيه مفردا دخلت الكاف على المشبه به ، هو مفرد واحد ، أو كلمة واحدة ، كما سبق من أمثلة.

فإذا كان التشبيه مركبا كان من المنطقي أن تدخل الكاف على بعض أفراد ذلك المركب أو بمعنى آخر دخلت على كلمة واحدة من المشبه به ، أو قل على كلمة واحدة من جملة المشبه به.

---

(1) السابق ، ص١٨٦.
(2) الجرجاني : الإشارات والتنبيهات ، ١٨٦.

وهذا هو المثال (وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ) ليس المراد هنا تشبيه الدنيا بالماء ، بل بنضرة وبهجة حصلتا للنبات بسبب اختلاط به ، ووجه الشبه مآلهم إلى الفناء.

من الطبيعي أن الكاف - كاف التشبيه - اتصلت في هذا المثال بكلمة واحدة فقط ، هي كلمة (الماء) إلا أن إفادة التشبيه تمتد إلى الجملة كاملة (مَاء أنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ).

ومن ناحية أخرى فإن اتساع مساحة أداة التشبيه من الحرف (الكاف - كأن) ثم الأسماء (مثل - شبه) وما اشتق منهما ، فضلا عن الأفعال دليل على مرونة واضحة في اللغة العربية ، لا تحبس المتكلم أو الكاتب في زاوية ضيقة من أدوات محدودة محددة من أدوات التشبيه.

٢- **الاستعارة :**

أن يطلق لفظ المشبه به على المشبه ، ويراد أنه هو هو في أخص صفاته.

وشرط الاستعارة أن لا يذكر المشبه ولا يقدر ، لأنه لو ذكر أو قدر كان تشبيها ، لا استعارة.

مثال الاستعارة قول البحتري :

وبدر أضاء الأرض شرقا ومغربا

وموضع رحلي منه أسود مظلم

وكما تجيء الاستعارة في الأسماء تأتي في الأفعال ، كقول أبي دلامة يصف بغلته :

أرى الشهباء تعجن إذ غدونا   برجليها ، وتخبز باليدين

استعارة لحركة يديها ورجليها الفعلين (تعجن وتخبز) لمشابهة بينهما وبين حركتي العاجن والخابز [1].

هنا الاستعارة صورة من التشبيه أو هي في الأصل تشبيه ، لكن غاب المشبه كما أنه أيضا لا يقدر ، وإلا عد تشبيها ، وبما أن التشبيه في جانبه النحوي مكون من مشبه ومشبه به وأداة ووجه الشبه ، فإن نقص ركن منه وهو المشبه ليدخل في دائرة الاستعارة هو أيضا كلام في تراكيب الجملة أيضا.

ومن ناحية أخرى فإن تقسيم الاستعارة إلى اسمية وفعلية هو أيضا معالجة لهندسة الجملة وتركيبها.

٣ـ المجاز:

(لفظ مستعمل في غير ما وضع له من حيث هو كذلك) وقبل أن نتحدث عن بعض شئون هذا المجاز نشير إلى رأي لنا ووجهة نظر هي أن البلاغيين عدوا الاستعارة من المجاز ، وهذا ما لا نراه إذ الاستعارة عندنا أخت التشبيه وربيبته ، كلاهما ـ الاستعارة والتشبيه ـ خرجا من مشكاة واحدة أو من عباءة واحدة ، وهذي عبارة الجرجاني.

جاء في كتاب الإشارات والتنبيهات في علم [2] البلاغة : (الاستعارة فرع على التشبيه لكونها مبالغة له ، فلا تصح إلا حيث يصح).

---

(1) حيدر : علم الدلالة ، ص٦٥.
(2) ص ٢٢١.

وعليه فإنا نخرج الاستعارة من أقسام المجاز ، يقول الجرجاني في ذات الكتاب : (وهو - المجاز - على أقسام : الاستعارة - نسبة السبب إلى المسبب أو العكس ، أي نسبة المسبب إلى السبب - نسبة الكل إلى الجزء أو العكس - نسبة الملزوم إلى اللازم أو العكس - نسبة المطلق إلى المقيد أو العكس - نسبة العام إلى الخاص أو العكس - نسبة الناقص إلى الزائد أو عكسه - نسبة الحال إلى المحل أو العكس - نسبة الشيء إلى غير زمانه) ثم : (نسبة الشيء إلى ضده - نسبة المصدر إلى فاعله - نسبة المصدر إلى مفعوله).

مرة أخرى تخرج الاستعارة من المجاز إلى التشبيه ، ونبقى على الأقسام الأخرى ثم نقول عن صلة المجاز بالنحو ما يلي :

تأتي أمثلة المجاز من الاسم ، كما تأتي من الفعل ؟ منا المجازات في الأسماء : (سلمت على المجلس العالي) وهو من قبيل تسمية الحالّ - بتشديد اللام - أي : الإنسان الجالس في المكان باسم المحل أو المكان [1].

والمجاز كما يكون في الاسم كذا يكون في الفعل والجملة ، نحو : (أحياني طلعتك) فإنه كما أن لفظ (أحيا) مجاز فيه ، كذا إسناده إلى (طلعتك) أيضا مجاز ، ولا يكون الإسنادي - الذي فيه إسناد أو هو جملة - إلا لغويا ؛ لأن دلالة المركبات على معانيها بالوضع ، لا بالفعل [2].

ويضيف الجرجاني : البحث في المجاز التركيبي - عندما يكون المجاز جملة - وإن كان يشبه أن يكون من مسائل علم المعاني - أي علم معاني النحو - لكن الأولى أن يجعل من مسائل علم البيان ، كما فعل السكاكي لمشاركته المجاز الإفرادي في

(1) حيدر : علم الدلالة ، ص٦٥.
(2) الجرجاني ص٢٠٤.

الدلالة على المعنى بشركة العقل ، ولئلا يقع الفرق بين قسمي شيء واحد ، وإنما ذكرته في علم المعاني تقليدا وغفولا ، فمن قدر على الترتيب المشار إليه من النساخ على وجه غير مخل ، فمن قدر على الترتيب المشار إليه من النساخ على وجه غير مخل ، فليفعل [1] مثابا مأجورا.

وأرى أنه سواء وضعنا المجاز التركيبي في علم المعاني أو البيان فإن صلته بالنحو - والتراكيب - واضحة ، ولذا فإن وضعه في علم معاني ليس تقليدا وغفلة ، إنما هو وجه من أوجه الصحة ، أو صحة الرأي.

ثانيا- علم البديع :

من تعريفاته أنه علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة.

أول ما يطالعنا في علم البديع المطابقة ، فما هي هذه المطابقة ؟ أن تجمع في كلام واحد بين المتقابلين ، سواء أكان التقابل صريحا ، أو غير صريح.

وسواء كان التقابل بالضدية أو بالسلب والإيجاب أو بغيرهما ، وسواء كان المتضادان اسمين أو فعلين أو حرفين أو مختلفين ، وهذي هي الأمثلة :

- المتقابلان بالإيجاب والسلب : قال تعالى : (فَلاَ تَخْشَوُاْ [2] النَّاسَ وَاخْشَوْنِ) التقابل بين (فلا تخشوا الناس) وهي جملة ، كما ترى وبين (اخشون) وإن كان هذا الفعل الأخير موجبا غير منفي ، والأول جاء بالسلب والنفي.

---

(1) الإشارات والتنبيهات ، ص٢٠٥.
(2) ٤٤ ، المائدة.

- **تقابل أسمين** : كما في قوله تعالى (وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ [1]) المطابقة بين (أيقاظا) وبين (رقود).
- **تقابل الفعلين** : أو قل الجملتين ، كما في قوله تعالى : (تُؤْتِي [2] الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء).

المطابقة بين (تؤتي) و (تنزع) وبين (تعز) و (تذل) تقابل الحرفين : كما آية (لَهَا مَا كَسَبَتْ [3] وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ) فالمطابقة بين اللام في (لها) وبين على في (عليا) وهما حرفا جر.

- **والمختلفان** : كقوله تعالى : (أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ [4]) أي : ضالا فهديناه ـ ومن الواضح أن المطابقة هي بين جمل في كل النماذج التي سبقت ، لا سيما في الأمثلة التي قيل فيها مطابقة بين اسمين أو فعلين ، أو حتى بين حرفين.

ففي نهاية سورة البقرة المطابقة ليست بين (اللام) و (على) كما ينص البلاغيون ، وإنما بين جملتين ، هما :

- لها ما كسبت.
- وعليها ما اكتسبت.

وكذا بين الاسمين مثل : (وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ) الأمر لا ينحصر ضيقا على المطابقة بين (أيقاظ) و(رقود) إنما حقيقة الأمر وأسه وأساسه بين جملتي :

- وتحسبهم أيقاظا.

---

(1) ١٨ ، الكهف.
(2) ٢٦ ، آل عمران.
(3) ٢٨٦ البقرة.
(4) ١٢٢ ، الأنعام.

- وهم رقود.

وليس بين (رقود) و (أيقاظ).

ومن نافلة القول أن المطابقة بين الفعلين (تؤتي) وبين (تنزع) وكذا في (تعز) و (تذل) إنها مطابقة بين الجمل :

- تؤتي الملك من تشاء (وبين) تنزع الملك ممن تشاء.
- وتعز من تشاء (وبين) وتذل من تشاء.

وهنا نجد أمثلة أمام نحو يمتد إلى ما وراء الجملة فيما يمكن أن يسمى (نحو النص) أو (علم اللغة النص) أو حتى (علم بلاغة النص) إذ الواضح أن التعامل ليس مع جمل منعزلة غير مترابطة وإنما مع مجمل النص.

عندي مثال آخر سابغ فاقع ناصع على (علم اللغة النص) أو (بلاغة) إنه يتمثل في موضوع الإيجاز والإطناب والمساواة ، ولأهمية هذا المثال فقد خصصت له مادة من مواد دستور العربية ، تأتي في مكانها قريبا.

ثالثا ـ المعاني :

وقد سبق أنه في الأصل أو في أصل تسميته هو (علم معاني النحو) وقد أكثرنا في الحديث عنه قبلا ، لكن بقي في جعبتي مثال أقدمه للقارئ مكتفيا به ، هو :

واو الحال : فماذا قال البلاغيون عنها في علم المعاني ؟ قالوا : واو الحال تجب أحيانا أو تمتنع أو تجوز ، وهاك التفصيل :

١- الجملة الحالية التي يمتنع فيها الـواو هي : المضارع المثبت ... قال تعالى : (وَلا تَمْنُن [1] تَسْتَكْثِرُ).

- وكذا المنفيّ تمتنع فيه الواو ؛ إذ العلة واحدة (وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللَّهِ [2]).

وبما أن حكم المضارع المنفي حكم الماضي عند النحاة فإن الواو في كلتا الحالتين مما يجوز مثل : (فَاسْتَقِيمَا [3] وَلاَ تَتَّبِعَآنِّ) بسكون الباء ، ومثل قول مسكين الدارمي :

أكسبته الورق البيض أبا ولقد كان لا يدعى لأب

وكذا الماضي مثبتا أو منفيا ، مثال الأول : (أَنَّى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ [4]) ومثالها في النفي : (أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ [5] وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم) على اعتبار أن (لما تأتكم) في المضارع = (ما أتاكم) في الماضي.

ومثاله بدون واو : (وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ [6] يَنَالُوا خَيْراً) ، وقول زهير :

كأن فتات العهن في كل منزل نزلن به حَبّ الفنا لم يُحطم

فإذا قارنا ما سبق [7] ببعض كتب النحو [1] نجد ذات المعالجة ، وإن بتوسع أكثر ، فهناك - مثلا - تمتنع الواو في سبع [2] مسائل ... ثم : (وتجب الواو في مسألتين ...) ثم :وفيما عدا ما تقدم تجوز الواو.

---

(1) ٦ المدثر.
(2) ٨٤ المائدة.
(3) ٨٩ يونس.
(4) ٤٠ آل عمران.
(5) ٢١٤ ، البقرة.
(6) ٢٥ الأحزاب.
(7) راجع الجرجاني ، ص١٤١ وقبلها.

وهكذا دار الحديث حول امتناع الواو أو وجوبها أو الجواز ، تماما تماما كما جاء في كتب البلاغة ، بل إن ما لا يحصى من الشواهد موجود موجود في المعالجة البلاغية والنحوية كلتيهما ، في كتب البلاغة والنحو كليهما ، وهذي أمثلة من بعض الشواهد ، مجرد أمثلة ونماذج من بعض الشواهد المشتركة التي وجدناها في موضوع واو الحال بين الوجوب والجواز والامتناع :

١- (وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ) ← امتناع الواو.

٢- أكسبته الورق البيض أبا ولقد كان ولا يدعى لأب ← جواز الواو

٣- (أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم) ← جواز الواو.

٤- كأن فتات العهن في كل منزل نزلن به حب الفنا لم يحطم ← جواز الواو وجوزا الحذف.

هذي فقط مجرد أمثلة ، ألم أقل قبل بأن في البلاغة والنحو كليهما شواهد مشتركة ، ما سبق نموذج ومثال في موضوع بعينه هو واو الحال.

(1) راجع الكامل ، لأحمد صفوت ٣٨٤/١ وبعدها.
(2) السابق.

المادة الثانية والخمسون
{٥٢}

يخرج الدرس البلاغي عن إطار الجملة الضيق - فضلا عن الكلمة المفردة - إلى رحابة النص ، ومن ثم البلاغة في جانب كبير منها هي بلاغة نص ، وليس جملة أو كلمة.

في أي جانب من جوانب الدرس البلاغي انحاز إلى النص ، وليس إلى الجملة أوالكلمة ؟ سبق وأشرنا إلى (المطابقة) وأنها صورة من صور الدرس النصي ، وليس الجملة.

وعندي أمثلة واضحات شديدات الوضوح على رأسها الذي به نبدأ ، وهو : الإيجاز والإطناب والمساواة

ركن من أركان (علم المعاني) أي (معاني النحو) نبدأ بالإيجاز والمساواة ، فنشير بكليمة عن كل واحد منهما ، ثم نثلث بالحديث عن الإطناب.

إذا كانت العبارة وافية بأداء المعنى المراد ، وهي - أي العبارة أقل منه - أي المعنى المراد - فهو الإيجاز ، وكان سيدي رسول الله (ﷺ) مثلا أعلى في هذا الإيجاز ،

فهو الذي أوتي (جوامع الكلم) أي يستطيع يضع المعاني الكثيرة في أصغر عبارة وأشدها وجازة.

وإن كانت العبارة مثل المعنى المراد فهي المساواة ، وهو كلام لو حذف منه شيء من لفظه اختل معناه ، ولم يحتج إلى زيادة عليه لفظا كقوله تعالى : (وَلا يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّئُ إلا [1] بِأَهْلِهِ).

نعود إلى الإيجاز فنشير إلى أن البلاغيين قسموه قسمين :

- الأول : إيجاز قصر.
- الثاني : إيجاز حذف.

<u>إيجاز القصر</u> : على ضربين ، أولهما أن تكون الجملة مستوفية مقتضياتها ، لكنها معللة بمقدمات مقدرة كقوله تعالى : (وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ [2] حَيَاةٌ) تقدير الكلام وتفسيره : لكم في القصاص ردع عن القتل ، وفي الردع ارتداع عنه ، وفي الارتداع عنه عدم القتل ، وعدم القتل حياة ، فكان لكم في القصاص حياة.

وهذي العبارة القرآنية أرجح وأقوى من قول العرب : القتل أنفي للقتل.

وثاني ضربي القصر أن يؤتى بألفاظ دالة على معنى أو معاني ، إذا فصل أو فصلت صارت معاني كثيرة كقوله تعالى في خطاب نبيه : (خُذِ العَفْوَ وَأمُرْ بِالعُرْفِ وَأعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ [3]) نقل عن الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) أن الله تعالى أمر نبيه فيها بجميع مكارم الأخلاق.

---

(1) ٤٣ فاطر.
(2) ١٧٩ البقرة.
(3) ١٩٩ الأعراف.

إيجاز الحذف : تحدثنا عن إيجاز القصر ، والآن نثني بإيجاز الحذف حيث إن العربية تتوسع في هذا الحذف حتى إنها ما تترك شيئا يفهم إلا حذفته.

البلاغيون يعرفون إيجاز الحذف بأنه حذف بعض متعلقات الكلام لقرينة ، إذا فالحذف لابد له من قرينة تدل عليه ، وهذي أمثلة من إيجاز الحذف :

- (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ [1] الْمَيْتَةُ) أي : تناول الميتة ، فحذف المضاف.
- (وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ [2] غَصْبًا) أي : كل سفينة صالحة ، فحذف الصفة.
- (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ [3]) لما أمرهم الله بالتقوى أعرضوا ، لقد حذف الجواب أعرضوا لمجرد الإيجاز لقرينة ، هذه القرينة هي قول تعالى في الآية التالية : (وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ).
- وربما جاء الحذف ليدل على أنه شيء لا يحيط به الوصف لفخامته ، وليذهب وهم السامع ووهله وتصوره كل مذهب ، إذ لو ذكر فربما هان عليه : (وَلَوْ تَرَى [4] إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ - وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو [5] رُءوسِهِمْ).

انتهيت من أمثلة الإيجاز والحديث عنه ، فالآن انظر - أيها القارئ - إلى أي مثال مما سبق ستجده نصا كاملا متكاملا ، غير منحصر في جملة أو جميلة ، ونشير فقط إلى بعض الأمثلة نحاول أن نحللها ونزيدها إيضاحا :

---

(1) ٣ المائدة.
(2) ٨٩ الكهف.
(3) ٤٥ يس
(4) ٣٠ الأنعام.
(5) ١٢ السجدة.

١- (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ [1]) لا يكتفي هنا بهذه الجملة على طولها، وإنما يمتد الاهتمام ويطول إلى خارج النص ، حيث حذف جواب الشرط ، المقدر بـ (أعرضوا) جملة كاملة حذفت ، ولكن دورها في النص محفوظ مقدر مفهوم ، بقرينة ، هي الآية التي تتلوها (...إلا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ) وهكذا.

٢- (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ [2]) إنها تعني ويتحلل تركيزها وإيجازها المركزين إلى عدة جمل ، تمثل نصا كاملا متكاملا ، هذي الجمل هن :

- لكم في القصاص ردع عن القتل.
- وفي الردع ارتداع وانتهاء عن القتل.
- وفي الارتداع عن القتل عدم القتل والبعد عنه.
- وعدم القتل والبعد عنه حياة للناس وحراسة لهذه الحياة.

والآن عودة إلى المساواة مساواة اللفظ والعبارة للمعنى من غير زيادة عليه ولا نقصان ، وفي المساواة لو حذفنا من العبارة شيئا من اللفظ اختل المعنى ، ومن ناحية أخرى فإن هذا المعنى لا يحتاج عليه زيادة من الألفاظ : (وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ [3]) التعامل مع نص كامل متكامل ، ليس جملة أو جميلة.

ولو كان التعامل مع جميلة محدودة محصورة ما نبتت فكرة الإيجاز (العبارة أقل من المعنى ولا المساواة : العبارة = المعنى ، لا نقصا ولا زيادة).

---

(1) ٤٥ يس.
(2) ١٧٩ البقرة.
(3) ٦٨ الأنعام.

والآن إلى الإطناب ، ما هو ، وما هوه ؟ الإطناب وما أدراك ما الإطناب ؟ إنه : (الزيادة على أصل المعنى المراد لفائدة) أي لا تأتي الزيادة لمجرد الزيادة بل لفائدة ، تيك الفائدة التي قسمها البلاغيون على سبعة أوجه : (التفسير بعد الإبهام - ذكر الخاص بعد العام - التكرير للزجر - الإيغال - التذييل - التكميل - التميم) وهاك التفاصيل :

١- التفسير بعد الإبهام : (وَقَضَيْنَا [١] إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاء مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ) فإن لفظ (الأمر) مبهم ، لا يعرف ما هو ؟ ومن ثم جاء التفسير بعده (...وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاء مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ) فالتعامل مع نص ليس جملة ، إذ لو كانت المسألة مسألة جملة لاكتفى بقوله (وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ) أو لكانت الآية (وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ... أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاء مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ) فقط.

وبطبيعة الحال الإيجاز له مكانه ، وكذا المساواة طبقا لنظرية (لكل مقام مقال) وكذا الإطناب لا يكون إلا لسبب وفائدة ، ولا يأتي سدى ولا عبثا ، إنما له سياقه ومقامه ووقته ومكانه.

٢- ذكر الخاص بعد العام : (مَن كَانَ عَدُوّاً لِّلّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ [٢]) جبريل وميكال ذكر للخاص بعد العام الذي يشملهم (... وملائكته).

٣- التكرير للزجر : (كَلا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلا سَوْفَ تَعْلَمُونَ [٣]) التكرار هنا

---

(1) ٦٦ الحجر.
(2) ٩٨ البقرة.
(3) ٣ ، ٤ التكاثر.

للزجر والوعيد ، وعلى ذكر (كلا) فإن أبي - رحمه الله - كان يحكي عن بعض أصدقائه الذي كان يتكلم مع زوجته بالفصحى فكان مما يقول لها :

(تقصيني كيف تشائين ، وتدنيني كيف تشائين ، أتريدين أن تجعليني ألعوبة في يديك !! كلا والله كلا ثم كلا ، والله كلا ثم كلا) إن تكرار (كلا) في العبارة جاء للزجر والوعيد ، الأمر هنا أمر نص كامل متكامل ، ليس جملا منفصلة.

هذا الرجل سألني مرة عن كليتي عندما كنت طالبا قلت له : دار العلوم ، فرد بحماس : (أنا أبز أساتذتك) أي أفوقهم.

٤- <u>الإيغال</u> : أن يشبه شيء بشيء ، ثم يردف بلفظ آخر ، أو بجملة أخرى تدل على كمال التشبيه :

وإن صخرا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

لقد حصل التشبيه بقولها (كأنه علم) لكنها كملته وجملته بجملة (في رأسه نار) ففي البيت أكثر من جملة واحدة ، تكون هذا النص.

٥- <u>التذييل</u> : تعقيب الجملة بجملة أخرى بمعناها للتوكيد ، سواء كانت الثانية مستقلة بنفسها أولا ؟ قال تعالى : (ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ [1]) أكثر من جملة في النص ، الثانية منهما توكيد للأولى.

٦- <u>التكميل</u> : ويسمى الاحتراس ، عندما يكون الكلام محتملا خلاف المقصود منه فإنه يؤتى بكلام آخر مزيل لاحتمال غير المقصود.

(1) ١٧ سبأ.

والفرق بين التكميل والتذييل في وجهين :

- الأول : في التكميل لا يكون الكلام الثاني بمعنى الأول ، على عكس التذييل.
- الثاني : احتمال غير المقصود أقوى في التكميل منه إلى التذييل.

من التكميل قوله تعالى : (فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ [1] يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ...) فإنه لو اقتصر على قوله : (أذلة) لتوهم أن ذلتهم عن عجز ، فأزال الوهم بقوله : (أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ).

٧- التتميم : أن يزاد في الكلام زيادة ، لا لإزالة غير المقصود ، بل لفوائد أخرى ، هي :

أ- المبالغة : كقوله تعالى : (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ [2]) أي مع حب الطعام ، فإن الإطعام مع شدة المحبة له والحاجة إليه أبلغ في الفضيلة ، وقال الفضيل ابن عياض : أي حب الله ، وكلا الرأيين - حب الطعام أو حب الله - جيد ، إلا أن الأول أجود من جهة اللفظ ، والثاني أجود من جهة المعنى.

ب- الاعتراض على جهة التنزيه (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ - سُبْحَانَهُ - وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ [3]) فإن قوله (سبحانه) اعتراض للتنزيه ، أو جملة معترضة ، ولذا وضعت بين شرطتين كما ترى.

وقد يكون الاعتراض للدعاء ، وهذي الجملة الدعائية توضع بين شرطتين أيضا ، مثل بيت عوف الشيباني :

إن الثمانين - وبُلغتَها - قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

(1) ٥٤ المائدة.
(2) ٨ الإنسان.
(3) ٥٧ النحل.

وقد تكون الجملة المعترضة للتنبيه ، كقول الشاعر :

واعلم - فعلم المرء ينفعه - أن سوف يأتي كل ما قدرا

جـ- وقد يأتي التتميم تخصيصا لأحد المذكورين للمبالغة (وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ [1]).

د- وقد يأتي اعتراض في اعتراض (فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۞ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ - لَّوْ تَعْلَمُونَ - عَظِيمٌ ۞ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۞ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ۞ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ [2]...) الخ ، هنا اعتراض بين الصفة (لقسم) وبين (عظيم) بجملة (لو تعلمون) واعتراض بين القسم وبين المقسم عليه [3].

ترى هل نحن بعد ذلك أمام بلاغة جملة أو مفردة ؟ اللهم لا ، كلا والله كلا ثم كلا ، نحن أمام بلاغة النص ، بلا شك ولا مراء.

ولكن أهذا ما عندنا من أمثلة لبلاغة النص ؟ كلا ، عندي أمثلة أخرى ، هات فإنك غزير العلم وافر المعلومات حاضر الذهن ، هذي بعض أمثلة مما في الجعبة :

١- هذا مثال من التشبيه (كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى [4] ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ...) المراد : كونوا كما كان الحواريون - أصحاب عيسى ابن مريم حين قال لهم عيسى : من أنصاري إلى الله [5] ؟ أي اتخذوا ذات الموقف الذي اتخذه أصحاب عيسى يا أصحاب محمد (ﷺ).

---

(1) ١٤ لقمان.
(2) الواقعة.
(3) الجرجاني - الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة ، انظر ص١٦٤ وقبلها.
(4) ١٤ الصف.
(5) الجرجاني ، ص١٨٦.

٢- ومن الاستعارة هذا التمثيل [1] وهو نقل الكلام بأسره إلى معنى آخر شبيه بمعناه الوضعي ، فإن سار عن ناقله واشتهر فهو المثل السائر.

مثال التمثيل قوله (ﷺ) : (ضرب الله مثلا صراط مستقيما ، وعلى جنبتي الصراط سور فيه أبواب مفتحة ، وعلى تلك الأبواب ستور مرخاة ، وعلى رأس الطريق داع يقول : ادخلوا الصراط ولا تتفرجوا).

الصراط = الإسلام ، الستور = حدود الله ، الأبواب المفتحة = محارم الله ، الداعي = القرآن.

ومن الأمثال السائرة : (فلان يقدم رجلا [2] ويؤخر رجلا).

٣- ومن المحسنات البديعية المعنوية إضافة إلى ما ذكرنا قبلا - عن المطابقة :

أ - المناسبة : وهي أن يجمع بين كلمات متناسبة : (الشَّمْسُ [3] وَالقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۞ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ) فالقمر يناسب الشمس والشجر يناسب النجم ، فهنا مطابقة خفية [4].

ب- الاستطراد : الانتقال من مقصود إلى آخر من غير أن يكون الأول وصلة إلى الثاني ، قال الزمخشري : ومن الاستطراد قوله تعالى : (يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ [5]).

---

(1) السابق ، ص٢٢٦.
(2) الجرجاني ، ص٢٢٦.
(3) ٥ ، ٦ الرحمن.
(4) السابق ، ص٢٦٤.
(5) ٢٩ الأعراف.

فهل ما سبق من أمثلة تعالج جملة جملة أم تعالج نصا كاملا متكاملا ، فعلم النص واضح شديد الوضوح في البلاغة ، التي هي في جزء كبير منها بلاغة نص ، لا جملة.

ولكي يطمئن القارئ أن فكرة النص فكرة متجذرة في التراث العربي فإنا نشير إلى أمرين مهمين في تراث العربية ، هما أسباب النزول في القرآن الكريم ، أو أسباب نزول الآيات القرآنية ، ثم أسباب ورود الحديث الشريف ، وهاك التفصيل :

أولا - أسباب النزول : ولنختر مثالا منها ، جاء في سورة [1] التوبة ما يلي : (وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ۞ لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ).

هذا نص مغلق ، لا يفهم بدون سبب نزوله الذي يوضح جوانبه وغوامضه ، فمن هؤلاء القوم ومن الذي سألهم ، وماذا قالوا وماذا فعلوا ، وما هي الحكاية ؟ كل هذا يفهم إذا عرفنا سبب النزول ، وهو :

قال رجل من المنافقين عن صلحاء المسلمين من الصحابة : (ما أرى قراءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطونا ، وأكذبنا ألسنة وأجبننا عند اللقاء) رفع الأمر إلى المصطفى (ﷺ) ويأتي هذا المنافق معتذرا مقرا بما قال ، لكنه يجادل بقوله : (إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ) مزح وضحك ولعب ، ويرد النبي الأكرم على المنافق : (أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ...) إلى قوله تعالى : (...كَانُواْ مُجْرِمِينَ).

---

(1) الآيات ٦٥ ، ٦٦.

وهنا يفهم النص ، ونعرف أطراف الحوار وماذا قالوا ، وماذا كانت مواقفهم وأقوالهم ، ومن هم ، نحن إذن أمام نص كامل متكامل ، وليس أمام جملة ، أو جمل منفصلة غير مترابطة أو متآزرة [1].

ثانيا ـ أسباب الورود : قال رسول الله (ﷺ) : (قل لها : إنها مأمورة من الله ، ولها نصف أجر المجاهد) هذا نص مغلق مبهم ، يزيل إبهامه ، ويفتح مغاليقه معرفة سبب وروده ، فمن الذي يكلمه الرسول (ﷺ) ومن تلك المرأة ، وماذا صنعت وما معنى الحديث ؟.

إن إحدى نساء الأنصار من الأنصاريات كانت تقول لزوجها حين يعود إلى البيت فرحا : (أهلا بسيدي وسيد أهل بيتي) وحين يعود مهتما غير سعيد : (لم تهتم وقد كفيت أمر الآخرة) كيف ؟ هو صحابي ، ولو وقع في أي خطأ فسيخبر الرسول ، سواء من قبل البشر أو الملائكة أو ينزل في حقه قرآن يتلى ، يفضحه على مر الأزمان وكر الدهور ، كما حدث لهذا المنافق الذي ادعى أنه كان يخوض ويلعب ، ولذا فإن هذا الصحابي قد كفى أمر الآخرة ، فلم ترفع عنه ملاحظة من أي نوع إلى سيد الخلق (ﷺ).

هذه الصحابية استحقت هذه المنزلة بسبب هذا التعامل الراقي مع زوجها حين يعود إليها في بيتها ، لذا استحقت عن دورها هذا نصف أجر المجاهد.

ولكن (هي مأمورة من الله) أي هي مأمورة من الله بحسن التبعل ، حسن التعامل مع زوجها وطيب الكلام واللقيا ، فهي لا تتفضل على زوجها ، هذا حقه عليها ، وحق كل زوج على زوجته.

هنا فهم الحديث ، وفهم النص ، وفهمت القصة ، إذن نحن أمام نص ، ليس أمام كليمات وجميلات ـ جمع جمع جميلة ـ ولكن أمام نص كامل متكامل.

---

(1) تفسير ابن كثير ٣٦٧/٢.

المادة الثالثة والخمسون

{٥٣}

اللغة العربية لغة قيم ومبادئ راقية ، ولذا تطبع متعلمها بطابع هذي القيم والمبادئ.

لغتنا العربية لغة قيم ومبادئ إنسانية راقية ، نلحظ هذا في عدة أشياء منها :

١- الشواهد في العربية والأمثلة داعية قيم ومبادئ ، وبما أننا نتحدث عن البلاغة فإنا سوف نستشهد بشواهد وأمثلة من البلاغة العربية.

لن نستشهد بشواهد من القرآن الكريم ولا الحديث النبوي ولا مأثورات الصحابة أو التابعين ، حيث نجد في كل ما سبق وفي أي مشاهد منها - خاصة القرآن والحديث - قمة القيم وأرقاها ، وإنما من الشعر ونثر العرب ، وهذي هي الأمثلة :

(أ) قال أبو الطيب المتنبي [1] :

فلا الجود يفني المال والجَد مقبل

ولا البخل يبقي المال والجد مدبر

ترغيب في الكرم والجود والسخاء ، وتنفير واضح من البخل والتقتير ، حكمة بالغة ، وحجة بليغة.

(ب) كان بعض الولاة يغرس غرسا في جامع بغداد فوقف علي نياك الغرس منشدا :

(1) الجرجاني : الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة ، تحقيق د. عبد القادر حسين ، القاهرة ١٩٨٢ ، ص٢٦٣.

إن الولايـــة لا تـــدوم لـواحـد	إن كنت تنكره فأين الأول ؟
واغرس من الفعل الجميل غرائسا	فـإذا عزلت فإنـها لا تعزل

استخدم (اغرس) بدل (اصنع) ليشاكل فعال الوالي [1]) شاهد على المشاكلة.

(جـ) (إنما يعجل من يخشى الفوت) حكمة تدعو إلى التأني الذي فيه السلامة ، والبعد عن العجلة التي تؤدي إلى الندامة ، كما تبين الحكمة سببا مهما من أسباب العجلة ، وهو خشية الفوت وضياع الفرصة التي تلوح.

٢- إن العربية تجتذب إليها أطيب العناصر من الشعوب الأخرى ، فيتعلمون لغتنا ويفنون حياتهم في خدمتها ويتفانون في دراستها ، فهذا سيبويه إمام العربية وصاحب سفر العربية الأجل ، هو من أصل غير عربي ، ومع هذا قدم للعربية ما قدم.

قال العلامة عبد السلام هارون في مقدمة الكتاب [2] : (وهو - أي سيبويه - من أصل فارسي ، وينتمي بالولاء إلى الحارث بن كعب...).

وما لنا نذهب قريبا أو بعيدا ، هؤلاء هم القراء السبعة ، أئمة القراء والإقراء الذين ارتضتهم الأمة جلهم من غير العرب أو من أصل غير عربي ، قال أستاذنا الدكتور عبد [3] الصبور شاهين - عليه سحائب الرحمات : (ليس بين القراء السبعة من العرب سوى أبي عمرو بن العلاء - ت ١٥٤هـ - وعبد الله بن عامر اليحصبي ، قاري الشام - ت ١١٨هـ - والباقون من الموالي) أي من أصل غير عربي.

(1) السابق ، ص٢٦٨.
(2) ١ / ٣.
(3) القسطلاني : لطائف الإشارات لفنون القراءات ، القاهرة ١٩٧٢ ، ٩٥/١ ، هامش ٢.

نافع بن نعيم ـ ت ١٦٩ ـ قارئ المدينة المنورة المطهرة كان من (أصبهان) حمزة ابن حبيب الزيات ـ ت١٩٨هـ ـ كان إمام أهل الكوفة في زمانه ، قال القسطلاني [١] : (هو مولى بني أسد ، فارسي الأصل).

وفي العصر الحديث خدم العربية مستشرقون غير عرب ، بل غير مسلمين ، كثر همو ، لكنا نعطي مثالين فقط ، هما :

أ ـ المستشرق الألماني (فيشر) : ظل طوال عمره يحلم بمعجم عربي حديث حتى تحقق هذا في مجمع اللغة العربية فكان المعجم الوجيز والوسيط ، وما تيسر من المعجم الكبير ، وفي الطريق المعجم التاريخي للغة العربية.

يقول الدكتور إبراهيم مدكور ـ رحمه الله : (أوجست فيشر أحد كبار اللغويين في القرن العشرين ، عُني بالمعجم العربي منذ أخريات القرن الماضي ـ التاسع عشر ـ وعاش معه نحو خمسين سنة ... قضى زمنا طويلا يجمع النصوص ليستخلص منها دلالات الألفاظ والتراكيب متتبعا إياها عبر العصور والبيئات ومسجلا ما يطرأ عليها من تغيير وتبديل ، وتوافر له من ذلك مادة صالحة ، انتهت به إلى آخر القرن الثالث الهجري).

ويضيف الدكتور مدكور : (ولم يك غريبا على الرجل ـ وهذا درسه ، وتيك منزلته ـ أن يكون بين مؤسسي مجمع اللغة العربية بالقاهرة بدأ معه منذ أنشئ ، واشترك مع زملاء له في وضع المعجم العربي الحديث [٢]) كما سبق.

ب ـ المستشرق الهولندي (كيس فيرستيخ) : أستاذ الدراسات الشرقية بالجامعة الكاثوليكية في نيمخن ، لقد حرر أحد أعداد المجلة الهندية لعلم اللغة التطبيقي

---

(1) السابق ١/٩٣ ، ٩٧.

(2) فيشر : المعجم اللغوي التاريخي ، القاهرة ١٩٦٧ ، تصدير بقلم الدكتور إبراهيم بيومي مدكور.

الذي صدر باللغة الإنجليزية في الحاضرة الهندية (دلهي الجديدة) عام ١٩٩٤ ، إصدار خاص جاء تحت عنوان :

Arabic outside the Arab world

كما كتب لهذا الإصدار مقدمة ضافية ومهمة.

العدد تضمن فضلا عن تيك المقدمة بحوثا حول العربية في تيك الأقطار (أندونيسيا - إيران - مالطة - الولايات المتحدة - فلسطين المحتلة) ثم عن المهاجرين العرب إلى الأقطار والبلدان الآتية : (البرازيل - لندن - هولندة - ألمانية).

وقد قمت بالاشتراك مع أحد الزملاء - بترجمة هذا الإصدار الخاص إلى العربية ، بحوثا ومقدمة.

كما قدم فيرستيخ كتابا مهما بعنوان :

اللغة العربية ، تاريخها ومستوياتها وتأثيرها

تضمن تحليلا دقيقا ومركزا ووافيا عن تاريخ العربية وشدة تأثيرها في غيرها من لغات العالم.

ما سبق حول فيشر وفيرستيخ نموذجان فقط فقط ، مما قدمه المستشرقون ، برغم ما قيل وقيل حول قصة الاستشراق منذ نشأ وإلى الآن ، إلى يوم الناس هذا.

ولسنا بمكان مناقشة ما للاستشراق وما عليه ، ولكن الثابت الثابت أن هؤلاء المستشرقين عاشوا في بيئة غير عربية ، غريبة أجنبية عن البيئة العربية ، ثقافيا وحضاريا ، بل بيئة معادية محاربة وإلى يوم الناس هذا ، ومع هذا خرج من هذه البيئة المعادية المحاربة لعرب والمسلمين من أنصف العرب وخدم لغتهم ، بل قدموا خدمات جليلة للغتنا ، وما سبق فقط مجرد نموذجين.

وما لنا نذهب بعيدا أو قريبا فإن علماء العربية القدماء ، وعلى القمة منهم القراءة السبعة جلهم من أصل غير عربي ، ومع هذا عشقوا العربية وكتابها الكريم وأفنوا أعمارهم في خدمة لغتنا وقرآن ربنا ، نقول هذا برغم الدماء التي سالت بين العرب وبين أقوام هؤلاء العلماء والقراء ، سيما مع الفرس والروم ، ولكن كل هذا لم يمنع هؤلاء الرجال من الانجذاب إلى لغتنا وقرآننا العربي.

ومن ناحية أخرى فقد كان المجتمع آنذاك من التفتح والانفتاح ورحابة الصدر ما جعل بعض هؤلاء الموالي سادة على أبناء العرب أنفسهم ، هذا نافع بن أبي نعيم كان من أصل فارس ، ورغم ذلك ظل إماما في مدينة النبي العربي (ﷺ) يتلمذ عليه ويزدحم حوله أبناء المهاجرين والأنصار في مسجد سيد العرب والعجم حتى توفي ١٦٩هـ.

وعندي مثال مهم بالغ الأهمية ، كيف ذاك ؟ نبدأ الإجابة من الألف حتى الياء ، ومن البدء إلى النهاية ، لقد نشر في مصر كتاب صغير الحجم ، لكنه كبير الفائدة والأهمية ، إنه كتاب :

الحملة الأمريكية ، مستعربون وسفراء [1] ورحالة.

وثيقة مهمة جديرة أن تقرأ بروية وإمعان لما فيها من المعلومات الثرة الثرية ومنها ما قاله المستشرق الأمريكي (هيوم حوراني) لقد قدم الرجل أعظم شهادة وأدقها حول لغتنا العربية ، وللقارئ أن يرجع إلى ما قال الرجل في ذياك الكتاب [2].

وما قاله يمثل للعرب أهمية بالغة ، ما حدث في وزارة الخارجية الأمريكية فور اندلاع حرب ١٩٦٧ بين العرب وبين إسرائيل ، كيف ؟ أنا أقول لك :

---

(1) ترجمة محمد الخولي ، القاهرة ١٩٩٦م.
(2) راجع مثلا ص ٤٤٠.

لقد انقسمت الدبلوماسية الأمريكية إلى قسمين ، المستعربون الذين تعلموا العربية وأجادوها في جانب ، وفي الجانب الآخر إسرائيل واللوبي الصهيوني وحلفاؤهم في الخارجية الأمريكية ، المستعربون كانوا يرون أن من صالح الولايات المتحدة أن تقف مع العرب ، أو على الأقل لا ترتمي في أحضان السياسة الإسرائيلية وبراثنها ، وكان هذا من منطلق الحرص على البلد وعلى مصالحه في الوطن العربي.

ولكن التيار الآخر المحابي لإسرائيل رأي أن تنتصر أمريكا لإسرائيل وأن يقهر العرب ، وكان العلاج في رأيهم أن يتم الصلح بين الحكومات العربية وبين إسرائيل ، ولتذهب الجماهير العربية لتشرب من البحر المالح ، وكان لهم ما ذهبوا إليه وسعوا فتم الصلح بين نظام السادات وبين إسرائيل - ١٩٧٩ - وهلم جرا ، وهكذا دواليك.

وهكذا تشرّب المتعربون الأمريكان روح العدالة والنزاهة والموضوعية ، ليس حبا في العرب ولغتهم ، ولكن حبا في بلدهم وإخلاصا له وسعيا في صالحه.

العربية إذن لغة قيم ومبادئ تطبع متعلمها بطابعها ، وخاصة قيم النزاهة والموضوعية والشفافية ، كما رأينا.

المادة الرابعة والخمسون
{٥٤}

بما أن العربية لغة شاعرة فإنها إلى المجاز أقرب ، إذ الحقيقة تسجن الإنسان في مستوى الطير والحيوان وفي إسارها.

العربية منعوتة دوما ودواما بأنها لغة شاعرة ، نثرها أقرب إلى الشعر ، ولذا فإن من المنطقي البدهي أن لغتنا إلى المجاز أقرب وأشد ميلا إليه.

إن الحقيقة البعيدة عن المجاز تقترب بالإنسان إلى منطق الطير والحيوان ومخلوقات الله الأخرى ، هذا المنطق الذي ينحصر في ردود الأفعال المباشرة القريبة وفي إسار الانفعالات البسيطة المحدودة.

أما المجاز فإنه ينطلق بالإنسان إلى رحابة الفكر الحر المتحرر من كل ما سبق ولذا كانت العربية إلى المجاز أميل.

في نهاية عملي في جامعة جالا الإسلامية - سبتمبر ٢٠١١ - كنت أقول لطالباتي : (من تأخرت عن موعد الامتحان تذبح ويشرب من دمها ، فإن كان الدم غير مستساغ وضعنا عليه قليلا من السكر) وقد سرني أن طالباتي فهمن التحذير على مجازه ، وليس على الحقيقة ، وإلا كانت العواقب وخيمة غاية الوخم والوخامة.

إن هذا ليذكر بهذي القصة الطريفة عن أمير المؤمنين (عليه السلام) ما هي رحمك الله ؟ إن أحد المؤلفة قلوبهم ـ العباس بن مرداس ـ يستقل من الغنائم نصيبه وقسمه فماذا قال المصطفى (ﷺ) ؟ قال : (يا علي خذه فاقطع لسانه !!) ويعجب الرجل وترتعد منه الفرائص فيقول : (أو قاطع أنت لساني يا أبا الحسن !؟) أمير المؤمنين يقول : (بلى ، إني لممض فيك ما أمر).

ماذا صنع عليّ ، هل قطع لسانه ؟ نعم وكلا ، كيف ؟ لقد ذهب به إلى إبل الصدقة ، فقال له : (خذ ما أحببت) فقطع لسانه ، أي أسكته ، وقطع لسانه عن الشكوى ، المسألة هنا مجاز في مجاز، ولو أخذ أمير المؤمنين كلام أخيه المصطفى على سبيل الحقيقة الجرداء لوقعت الكارثة فقطع لسانه ، ولم يمنعه ولم يسكته عن الشكوى.

ونعود إلى المرحوم العقاد صاحب تعبير اللغة الشاعرة الذي يشير إلى مزايا التعبير الشعري والتعبير على العموم من خلال بحوث علمية في لغتنا على متعلميها من غير العرب وعلى لسان أهليها ليخلص إلى أن العربية وصفت قديما وحديثا بأنها لغة شاعرة ، أي يكثر فيها الشعر والشعراء ، وأنها لغة مقبولة في السمع يستريح إليها السامع كما يستريح إلى النظم المرتل والكلم الموزون إضافة إلى أنها لغة يتلاقى فيها تعبير الحقيقة والمجاز على نحو لا يعهد إليه نظير في سائر اللغات.. انتهى كلام العقاد [1].

إذن فالعربية يتلاقى فيها المجاز والحقيقة بشكل لا نجد له نظيرا في غيرها من لغات العالم.

---

(1) اللغة الشاعرة ، ص٤.

أما أن العربية مقبولة في السمع يستريح إليها السامع فإن هذا ليذكر بقولة المستشرق الأمريكي هيوم حوران : (إن العربية من أجمل ما تسمعه الأذن من [1] إيقاع) وما يؤهلها بامتياز وامتياز كي توصف وتنعت بأنه لغة شاعرة.

ونعود نعود من العقاد إلى العلامة ابن جني الذي يفرق بين الحقيقة والمجاز ، إذ الأولى في تعريف أبي الفتح : (ما أقر في الاستعمال على أصل وضعه في اللغة) فما المجاز في رأيه ؟ (ما كان بضد ذلك).

ولكن ، لماذا يقع المجاز ، ويعدل به عن الحقيقة ؟ يجيب صاحب الخصائص : (لمعان ثلاثة ، الاتساع والتوكيد والتشبيه ، فإن عدم هذه الأوصاف كانت الحقيقة) لكن المثال المثال يا أبا الفتح ؟ حبا وكرامة ، هذا هو المثال :

قول النبي (ﷺ) في الفرس هو (بحر) فالمعاني الثلاثة موجودة فيه ، كيف ؟ أما الاتساع فلأنه زاد في أسماء الفرس اسما جديدا ، يمكن أن يحتاج إليه في شعر أو سجع أو اتساع ، عندها يستعمل استعمال بقية الأسماء.

وأما التشبيه فلأن جرْى الفرس يجري في الكثرة مجرى ماء البحر ، وأما التوكيد فلأنه شبه العرض بالجوهر ، وهو أثبت في النفوس منه ، والشبه في العرض منتفية عنه ، إن من الناس من دفع الأعراض ، وليس من أحد دفع الجواهر.

لكن ابن جني يوكد حقيقة مهمة هي : (لكن لا يفضى إلى ذلك ـ المجاز ـ إلا بقرينة تسقط الشبهة) بين المجاز وبين الحقيقة ، المثال يا رجل ؟ (كأن يقول الساجع) :

فرسك هذا إذا سمي بغرته كان فجرا ، وإذا جرى إلى غايته كان بحرا

---

(1) رويرت كابلان : الحملة الأمريكية ... ترجمة محمد الخولي ، ص٤٣٧.

ونحو ذلك ، ولو عري الكلام من دليل يوضح الحال لم يقع عله بحر لما فيه من التعجرف في المقال من غير بيان ولا إيضاح ، فلو قال : رأيت بحرا ، وهو يريد الفرس لم يعرف بذلك غرضه فلا يجوز قوله هذا لأنه إلباس وإلغاز على الناس.

ويعطي مؤلف الخصائص مثالا آخر ، ما هو ؟ وأما قولهم : ملكت دارا ، أو بنيت حماما ، فحقيقي هو ونحوه لا استعارة فيه ، ولا مجاز ، لكن لو قال : بنيت لك في قلبي بيتا ، أو ملكت من الجود عبدا خالصا ، أو : أحللتك من رأيي وثقتي دار صدق لكان ذلك مجازا واستعارة لما فيه من الاتساع والتوكيد والتشبيه على ما مضى [1].

والآن إلى العلامة السيوطي ، فماذا في جعبته عن المجاز والحقيقة ؟ جاء في المزهر : الحقيقة من قولنا : حق الشيء إذا وجب ، اشتقاقه من الشيء المحقق وهو المحكم ، يقال ثوب محقق النسج ، أي محكمه ، فالحقيقة الكلام الموضوع على موضعه ، ليس باستعارة ، ولا تمثيل ...

وأما المجاز فمأخوذ من جاز يجوز ، إذا مضى على وجهه ، معنى هذا أن الكلام الحقيقي يمضي لسَنَنه ، لا يعترض عليه ، وقد يجوز غيره لقربه منه إلا أن فيه من تشبيه واستعارة ... ما ليس في الأول ، وذلك كقولنا : عطاء محمد مُزن واكف ، فهذا تشبيه ، وقد جاز مجاز قوله : عطاء محمد كثير وافٍ ، ومن هذا قوله تعالى : (سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ [2]) هنا استعارة.

ثم يستعير السيوطي ما سبق من قول ابن جني من تعريف الحقيقة والمجاز ، والسبب في العدول عن الحقيقة إلى المجاز لمعان ثلاثة (الاتساع - التوكيد - التشبيه)

---

(1) الخصائص ٤٤٦/٢ وقبلها.
(2) ١٦ القلم.

بل نفس المثال الذي ضربه ابن جني ، قول الرسول (ﷺ) عن الفرس (هو بحر[1]).

ويخلص السيوطي إلى أن أكثر اللغة - أي اللغة العربية - مع تأمله مجاز ، لا حقيقة ، هذا ما يخلص إليه السيوطي ، أو هذا ما نخلص إليه من كلام العلامة صاحب المزهر [2].

والآن ندلف إلى مثال مهم فيما يختص بالمجاز والحقيقة ، إنه العدد في القرآن الكريم ، العدد لابد لابد أن يكون على سبيل الحقيقة ، لا المجاز خاصة في القرآن الكريم ، كلام الخالق ، ليس المخاليق.

بل إن كتاب الله يَقسم العدد تقسيما بغية توكيده ، مثال :

- (وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ [3] لَيْلَةً) لاحظ ٣٠ + ١٠ = ٤٠.
- (فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ [4] كَامِلَةٌ) لاحظ ٧ + ٣ = ١٠ ، كما يلاحظ أن القرآن لا يقول فقط (تلك إذن عشرة) بل ينعت هذه العشرة بأنها كاملة كنوع من التوكيد ، أو كشكل من أشكال التوكيد.

كما يلاحظ أن القرآن يذكر العدد الأكبر أولا ، ثم العدد الأصغر - كما مر - ٣٠+١٠=٤٠ ، وليس العكس ، هذا أسهل في الجمع ، وأقرب إلى الفهم والوعي من جانب المتكلم.

---

(1) المزهر ٣٥٦/١ وقبله.
(2) ٣٥٧/١.
(3) ١٤٢ الأعراف.
(4) ١٩٦ البقرة.

وبرغم هذا نجد في القرآن استخدام العدد على سبيل المجاز لا الحقيقة ، كيف ؟ هذا هو المثال :

- (اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ [1])

فإن استغفر الرسول (ﷺ) واحدة وسبعين مرة ، فهل يغفر الله لهم ؟ كلا ، إن العدد هنا على الكثرة والمبالغة ، وليس على حقيقة العدد.

قال الزمخشري [2] : والسبعون جارٍ مجرى المثل في كلامهم للكثير ، قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) :

لأصبحن العاص وابن العاصي

سبعين ألفا عاقدي النواصي

وأقول : يلاحظ أن الآية تبدأ وتفتتح بجملة : (اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ...) أي مهما كان الاستغفار منه (ﷺ) فلن يغفر الله لهؤلاء المنافقين ، مهما كانت مرات الاستغفار ، ومهما بلغ عددها.

وفي معجم ألفاظ القرآن الكريم الذي صنفه مجمع اللغة العربية بالقاهرة وصفت بعض ألفاظ العدد بأن (المراد به العدد نفسه [3]) أي على سبيل الحقيقة ، لا المجاز ، مثل :

- (وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا [4]).

وفي مكان آخر يقول ذات المعجم : (العدد المعروف ويراد به الكثرة [5]) أي

---

(1) ٨ التوبة.
(2) الكشاف ١/١٦٤.
(3) ١/٥٥٠.
(4) ١٥٥ الأعراف.
(5) السابق.

على سبيل المجاز ، لا حقيقة العدد ، مثال :

- (ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ [1]).

ومرة أخرى مع الزمخشري في تفسير هذي الآية ، إذ يقول : (وجعلها - أي السلسلة - سبعين ذراعا ، إرادة الوصف بالطول) إذن العدد ليس على حقيقته ، بل مجاز ، إرادة وصف السلسلة بأنها طويلة جدا ، أو رغبة المبالغة في طولها.

بل يضيف صاحب الكشاف : (كما قال : إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ، يريد مرات كثيرة) ثم يود الزمخشري إلى السلسلة التي يطوق بها الكافر بقوله : (لأنها - أي السلسلة - إذا طالت كان الإرهاق أشد [2]) وعذاب الكفار أكبر وأشد.

من كل ما سبق نخلص إلى أن العدد على دقته وشدة الاهتمام به ، بل يأتي الاهتمام بها على قمة الاهتمام عن سائر الألفاظ ، ومع هذا ، ومع هذا تأتي ألفاظ العدد أحيانا على سبيل المجاز إرادة الكثرة والمبالغة في العدد ، وقد وقع هذا في القرآن الكريم ، وهذا له دلالة كبرى على المجاز وعلى الجواز.

وفي نهاية شرح هذي المادة نسطر اقتباسا مهما من كتاب المساومة عبر الحدود [3] لخبير التفاوض الدولي إذ يقول عن العدد أو ما يسميه بالأرقام :

يجب توخي الحذر عند ذكر الأرقام بوجه خاص والتأكد من أن المترجم - عند التفاوض مع من تختلف لغته عنا - قد بلغ الطرف المفاوض بالرقم الذي ذكرته أنت بالضبط بالضبط ، إذ من السهل جدا أن تجد ترجمة خاطئة للأرقام أثناء التفاوض فتصبح الألف ملايين.

---

(1) ٣٢ الحاقة.
(2) الكشاف ١٣٦/٤.
(3) ترجمة نيفين غراب ، القاهرة ١٩٩٧ ، ص١٠٦.

كلمة mille بالفرنسية تعني الألف ، وليس المليون ، أي أنها يمكن أن تلتبس بالكلمة الإنجليزية million التي قد تعني المليون بالعربية.

ويضيف فوستر : هناك عديد وعديد من القصص المرعبة التي نتجت من أخطاء في مجال الأرقام ، بحيث يصبح من الضروري أن نوكد على هذي الأرقام عند الترجمة ، ونتأكد من أن المترجم الفوري - خاصة - متمكن في مجاله ، سيما إذا كانت المفاوضة تعتمد وتدور حول معلومات فنية وإحصائية ... انتهى مقتبس فوستر بتصرف واضح.

وتعجب أن العربية انفردت عن غيرها من لغات العالم بتفصيلات غنية - وربما غريبة - عند التعامل مع العدد ، هذا الباب الذي يتسم بتفصيلاته الواضحة ، وربما تعقيداته التي يحس بها متعلم العربية والمتعامل معها ، بل إن في العربية كلمات موكدة للعدد موضحة مثل (فقط - ليس إلا - لا غير - ليس غير ... الخ) .

وبرغم هذا عندما نحتاج العربية إلى مجازية العدد فإنه تجيزه وتجوزه ، وقد أوردنا من هذا أمثلة من القرآن الكريم - كما سبق - بل نجد هذا في العامية شائعا مستخدما ، كم أقول مثلا :

- كلمتك مائة مرة.
- ذهبت إليك ألف مرة.
- حاولت مليون مرة.

ولا ننكر أن هذا موجود في اللغات الأخرى ، أي استخدام العدد مجازا مجازا ، لا حقيقة ، وهذي أمثلة.

- في اللغة الفرنسية millier كلمة معناه ألف ، أو عدد كبير من النـاس ، لاحظ (عدد كبير).
- في الإنجليزية million مليون أو عدد ضخم جدا ، لاحظ (عدد ضخم جدا).

مثـالان مـن الفرنـسية والإنجليزيـة يثبتـان أن ذات الظـاهرة أي اسـتخدام العـدد مجازيـا ، لـيس علـى سبيل الحقيقـة وهـو الجدير الجدير بالحقيقـة فقط فقط ، نعم هذا الاستخدام قد نجده في لغات أخر غير العربية ، لكن العربيـة تتوسـع فـي هـذي الظـاهرة بما لا نجده في غيرها.

المادة الخامسة والخمسون

{٥٥}

اللغة العربية لغة حوار حي متفاعل ، ولذا كان التعويل على السياق ، فكثير من الأدوات تتعدد وظائفها ، ولا يفرق بينها غير السياق.

لغتنا العربية لغة حوار حي متفاعل ، ولذا طبعت أبناءها بطابع الحوار المثمر المفيد ، وهذان موقفان من مواقف صحابة السيد الجليل ـ صلى الله عليه وآله ـ من العرب الأقحاح :

١ـ في معركة الخندق : اشتد على المسلمين البلاء ، وعندها بعث النبي الأكرم ـ صلى الله عليه وآله ـ إلى قائدي غطفان يعرض عليهما ٣/١ ثمار المدينة المنورة لقاء أن يرجعا بمن معهما من مقاتلي القبيلة عنه وعن أصحابه.

ويبعث الرسول الكريم إلى زعيمي الأنصار ، وهما السعدان ، سعد بن عبادة ، وسعد بن معاذ يستشيرهما ، فماذا قالا ؟ لقد دار الحوار التالي :

- يا رسول الله ، أمرا نُحبه فنصنعه ، أم شيئا به أمرك الله ، لابد لنا من العمل به ، أم شيئا تصنعه لنا ؟.
- بل شيء أصنعه لكم ـ والله ـ ما أصنع [1] ذلك إلا لأني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ، وكالبوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر عنكم من

(1) السيرة النبوية لابن هشام ٣ / ٢٢٣.

شوكتهم إلى أمر ما.

- فقال سعد بن معاذ : يا رسول الله ، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ، ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قرى أو بيعا ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام ، وهدانا له ، وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا ؟! والله ، ما لنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم.
- الرسول : فأنت وذاك.
- وهنا يتناول سعد بن معاذ الصحيفة ويمحو ما فيها من الكتابة معلنا التحدي قائلا : فليجهدوا علينا .

حوار حي وفاعل عاقل بين السعدين وبين سيد الخلق - صلى الله عليه وآله - إن كان الأمر وحيا ، فلا مجال - من بعيد أو قريب - لرفضه ، أو عصيانه ، وإن كان إشفاقا من القيادة ، فقد رأى السعدان أن هؤلاء القوم ما كانوا يطعمون من ثمر المدينة إلا قرى أو بيعا وشراء ، وعندما شرفوا - أي الأوس والخزرج - بالإسلام يعطون غطفان أموالهم استسلاما وخضوعا ، ليس لغطفان غير السيف حتى يحكم الله.

٢- في غزوة بني المصطلق : تشاجر الأنصار والمهاجرون بعد ازدحامهم على الماء ، وكان عبد الله بن أبي سلول رأس النفاق بين رجال من خلصانه المخلصين المحلصين ، فقال معقبا على ما رأى : أو قد فعلوها ، قد نافرونا - يعني المهاجرين - وكاثرونا في بلادنا ، والله ما أجدنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك ، أما - والله - لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأزل.

ولم يكتف بهذا ، بل أقبل على من حوله من خلصائه :

هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما ـ والله ـ لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم.

وبرغم أن الرجل قال هذا في وسط من أحبائه الموثوق بهم فإن حدثا صغيرا ـ اسمه زيد بن أرقم ـ سمع ذلك كله ، بل نقله [1] إلى سيد الخلق ـ صلى اله عليه وآله ـ الذي غضب غضبا شديدا ، فأصدر الأوامر للجيش بالرحيل العاجل ، وجاء هذا في وقت لم يك رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ يرتحل فيها ، ثم مشى بالجيش يومهم حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم حتى آذنتهم الشمس ، ثم نزل بالناس فناموا على الفور من فرط الإرهاق والتعب ، وقد لجأ ـ صلى اله عليه وآله ـ على هذا لينشغل الجيش عما قال رأس النفاق ، ابن سلول.

وفي الطريق إلى المدينة المنورة دار هذا الحوار بين الرسول الأكرم وبين الصحابي الجليل أسيد بن حضير :

- أسيد : يا رسول الله ، والله لقد رحت في ساعة منكرة ، ما كنت تروح في مثلها ؟
- الرسول : أو ما بلغك ما قال صاحبكم ؟
- أسيد : وأي صاحب يا رسول الله ؟
- الرسول : عبد الله بن أبّي.
- أسيد : وما قال ؟
- الرسول : زعم إن رجع المدينة أخرج الأعز منها الأذل.

(1) ومن ثم على الكبار الحرص الشديد من الحديث أمام الصغار ، حتى لا ينقلوا هذا إلى الآخرين.

- أسيد : فأنت يا رسول الله - والله - تخرجه منها ، إن شئت ، هو - والله - الذليل وأنت العزيز ، يا رسول الله ، أرفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك ، وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه ، فإنه ليرى أنك قد استلبته [1] ملكا.

انظر إلى هذا الحوار الرائق الفائق ، أسيد (ﷺ) يلحظ ملاحظة دقيقة لماذا سار سيد الخلق (ﷺ) في هذا الوقت وبهذا الشكل ، ويجيب السيد الجليل : أو ما سمعت ما قال صاحبكم ؟ ولا ينبري أسيد يهمز هذا الصاحب أو يلومه ويعيبه ، بل يسأل من هو ؟ فقط ، كلا ، بل يسأل : ماذا قال ؟ وعندما يقف على كبد الحقيقة يعلن رأيه ، ليس قبل ذلك.

وحين وقف على ما قال رأس النفاق أعلن على الفور : إن كان الأمر كما قال ابن أبي ، فإن محمدا (ﷺ) يمكن إذا شاء أن يخرجه من المدينة ويطرده ، لماذا ؟ أنت العزيز يا محمد ، وهو الذليل.

وبعد أن تبين الرجل واستبان له الأمر لم يكتف بفهم ما حدث فقط ، بل قدم لرسوله تفسيرا لما حدث من هذا المنافق ، تمكن بهذا التفسير من أسباب وخلفيات ما حدث من هذا المنافق ، وهو :

لقد جاء سيد الخلق إلى المدينة وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه ملكا ، ومن ثم لا ينسى أن محمدا قد حرمه هذا الملك ، وحرمه عليه ، ولذا كان ما كان من نفاقه وتآمره.

---

(1) د. أحمد أبو الخير - د. علي الغريب : قراءات في أدب العربية ، الجزء الأول ، القاهرة ٢٠٠٧ ، ص٧ وقبلها.

لوحة رائعة من الحوار الناجح المثمر بين سيد الأولين والآخرين وبين أحد حواريه من الأنصار - رضي الله عنهم أجمعين - فمحمد معلم البشرية ، ولبس المسلمين والعرب فقط.

نموذج آخر من نماذج العقل العربي المزدان بحوار عاقل فاعل وحر منفتح حتى مع سيد الخلق ، إذ العربية طبعت أبناءها ومتعلميها بروح الحوار والتفاعل والتواصل.

٣- عبد الله بن عباس : ابن عم النبي - صلى الله عليه وآله - وتحت إمرة أمير المؤمنين (ﷺ) تمكن ابن عباس من إقناع الكثرة الكاثرة من الخوارج بالعودة عن مواقفهم ضد الإمام علي (ﷺ) قبيل معركة النهروان الشهيرة ، في بعض الروايات كانوا عشرين ألفا من عتاة الخوارج ، ولم يبق على موقفه من هذا الجيش العرمرم غير ٤٠٠٠ فقط ، قتل منهم - وفي بعض التقديرات أيضا - ٢,٨٠٠ مقاتل.

هذا ما يدل على أن الفكر مهما اعوج لا يقارع ولا يصارع إلا بالفكر ، ليس بالعنف ولا بالقهر أو الكهر ، ومن ناحية أخرى يشير أن العربية طبعت أبناءها ومتكلميها بطابع الحوار والإقناع والجدال بالتي هي أحسن ، ولولا هذا ما تمكن رجل مثل ابن عباس من إقناع هذا العدد من الخوارج المهووسين بالعدول عن الحرب ، أنقذهم جميعا من القتل والهلاك ونيران جهنم التي تفتح ذراعيها على سعتهما لهؤلاء المتهافتين على حرب سيد العرب (ﷺ).

القرآن الكريم نفسه الذي نزل من فوق سبع سماوات بلسان عربي مبين ، تلقاه العرب أولا ، لينقلوه بعد ذلك إلى العالمين ، من إنس وجان ، هذا القرآن نفسه هو كتاب حوار وجدال بالتالي هي أحسن ، شعاره :

- (قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ [1]).
- (وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ [2]).

انظر عزيزي القارئ - إن تعبير : (هاتوا برهانكم) وقع في الكتاب الكريم أربع مرات ، ليس مرة واحدة ، في سورة [3] البقرة والأنبياء والنمل والقصص ، ليس في مرة واحدة.

وشعار هذا القرآن الكريم أيضا :

- (وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ [4]).
- (وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ [5]).

ويضرب القرآن الكريم مثالا مهما على أهمية القول السديد المتكئ على تقوى الله - تعالى - ولو كان القول ومناقشة الناس ومجادلتهم بالتي هي أحسن ، لا جدوى منها ، ما قال رب العزة :

(وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ ...) ماذا يفعلون يقول ربنا : (فَلْيَتَّقُوا اللهَ ، وَلْيَقُولُوا : قَوْلاً [6] سَدِيداً).

وهذه السورة التي تسمى بـ (غافر) أو (المؤمن) نسبة إلى مؤمن آل فرعون الذي قدم لوحة رائعة من لوحات الحوار الهادئ الرزين مع فرعون وآله الذي قرر ما يلي ، كما جاء في السورة :

---

(1) ١١١ البقرة.
(2) ١٣٠ البقرة.
(3) راجع : المعجم المفهرس ، ص ١٤٥.
(4) ١٢٥ النحل.
(5) ٤٦ العنكبوت.
(6) ٩ النساء.

(ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ [1] الْفَسَادَ).

إن فرعون يستأذن ملأه وحاشيته أن يقتل موسي (عليه السلام) ويقدم تبريرا مزيفا ، ودليلا متهافتا ، وتهمة باطلة يرميها على نبي الله إذ هو - في تصوره الآفك الكاذب وتخوفه المختلق - يمكن أن يبدل دين أهل مصر أو أن يظهر في المملكة الفساد !!!.

نبي الله موسى (عليه السلام) لا يملك إلا : (...إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ [2]).

وهنا انتدب رجل من آل فرعون ، وقع الحق في قلبه ، لكنه كان كتم إيمانه ، انتدب نفسه يدفع ويدافع عن موسى (عليه السلام) ويحتال لدفع القتل والقوم عنه ، ويسلك في خطابه لفرعون وملئه مسالك شتى ، ويتدسس ويتسلل إلى قلوبهم بالنصيحة ويستثير حساسية قلوبهم بالتخويف والإقناع ، يجادلهم بالتي هي أحسن.

حوار هذا المؤمن ربما كان أطول حوار في القرآن الكريم ، لقد استمر سبع عشرة آية كاملة ، من جملة آيات السورة التي انتهت إلى خمس وثمانين آية ، أي خمس السورة ، أو خمس عدد آيها تكرس لحوار هذا المؤمن مع فرعون وملئه.

وعندما وجد أن القوم لا يقتنعون بما قال ونصح ، وما قدم من حجج ، أنهى حواره بقوله : (فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ، وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ [3]).

---

(1) ٢٦ غافر.
(2) ٢٧ المؤمن.
(3) قطب : في ظلال القرآن ، ١٧٨١٧.

إن القوم لم يقتنعوا بما قال مؤمنهم ليس عن ضعف حجة ، أو قصور في الأدلة ولكن الظالمين بآيات الله وحججه يكذبون وينكرون.

ولكن ترى ماذا كسبَ المؤمن من جداله ومجادلته للقوم ؟ يقول ربنا : (فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا) جزاء له وفاقا على دفاعه عن نبي الله ، فما كان جزاء الجاحدين المتمأكمين ؟ (وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ) ما هو هذا العذاب شديد السوء ؟ (النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً) أي في القبر ، فقط ؟ كلا (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ [1] الْعَذَابِ).

ولا تكتفي السورة بتلك اللوحة التي سلفت ، بل ما تكاد هذه اللوحة تختم حتى تبدأ لوحة أخرى من الحوار تبدأ بقوله تعالى : (وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ [2] فِي النَّارِ...) لقد انتقل الحجاج والحوار من ملأ فرعون ومؤمنهم في الدنيا إلى التحاج في الآخرة بين أهل النار ، وقبل أن نتكلم عن هذا الحوار نشير إلى بدنه بهذا الفعل (يتحاجون) يتحاورون بالحجج والبراهين - ليس غير - كيف ؟ (فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا : إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً ، فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِّنَ النَّارِ ؟) ويرد الفريق الآخر :

- (... إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ).
- (وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ : ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِّنَ الْعَذَابِ).
- (قَالُوا : أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ ؟).
- (قَالُوا : بَلَى).
- قَالُوا : فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلا فِي ضَلَالٍ).

(1) ٤٦ غافر.
(2) آية ٤٧.

لوحـة مـن الحـوار بـدأ بالفعـل (يتحـاجون) تحـاور أولا بـين الـضعفاء التـابعين والمـستكبرين المتبـوعين ، تبعـه حجـاج بـين المـستكبرين وبـين الملائكـة خزنـة جهـنم وحراسها.

وبعد قليل من الآيات تأتي آية مهمة تشير إلى أن الحجاج والجدال بدون دليل وسلطان هو كبر وتكبر ، لاحظ أن القرآن يؤكد أن العيب ليس فيما يقول المستكبرون في النار ، بل إن العيب ـ كل العيب في الجدال بدون دليل نميل إليه حيث يميل ، اقرأ الآية : (إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ [1]...).

ومما يدل على أهمية الحوار والحجاج في القرآن الكريم هو أن مادة (ق و ل) وما اشتق منها جاءت أضخم المواد في الكتاب العزيز ، انظر :

- الفعل (قال) جاء٥٢٩ مرة.
- الفعل (قالا) ٣ مرات.
- الفعل (قالت) ٤٣ مرة.
- الفعل (قالها) ٢ مرتين.
- الفعل (قالوا) ٣٣٣ مرة.
- الفعل (قلت) ٦ مرات.
- الفعل (قلتم) ٩ مرات.
- الفعل (قلته) مرة واحدة.
- الفعل (قلن) ٢ مرتين.
- الفعل (قلنا) ٢٧ مرة.

(1) آية ٥٦ وما قبلها.

- الفعل (أقل) ٦ مرات.
- الفعل (أقول) ٩ مرات.
- الفعل (تقل) مرة واحدة.
- الفعل (تقول) ١٢ مرة.
- الفعل (تقولن) مرة واحدة.
- الفعل (تقولوا) ١٦ مرة.
- الفعل (تقولون) ١١ مرة.
- الفعل (نقول) ١١ مرة.
- الفعل (لتقولن) مرة واحدة.
- الفعل (يقل) مرة واحدة.
- الفعل (يقول) ٦٨ مرة.
- الفعل (يقولا) مرة واحدة.
- الفعل (ليقولن) مرة واحدة.
- الفعل (ليقولن) ١٥ مرة.
- الفعل (يقولوا) ١٧ مرة.
- الفعل (يقولون) ٩٢ مرة.
- الفعل (قل) ٣٣٢ مرة.
- الفعل (قلن) مرة واحدة.
- الفعل (فقولا) ٣ مرات.
- الفعل (قولوا) ١٢ مرة.
- الفعل (قولي) مرة واحدة.
- الفعل (قيل) ٤٩ مرة.

- الفعل (يقال) ٣ مرات.
- الفعل (تقوّل) مرة واحدة.
- الاسم (تقوله) مرة واحدة.
- الاسم (القول) ٥٢ مرة.
- الاسم (قولا) ١٩ مرة.
- الاسم (قولك) مرة واحدة.
- الاسم (قولكم)٢ مرتين.
- الاسم (قولنا) مرة واحدة.
- الاسم (قوله) ٢ مرتين.
- الاسم (قولها) مرة واحدة.
- الاسم (قولهم) ١٢ مرة.
- الاسم (قولي) ٢ مرتين.
- الاسم (الأقاويل) مرة واحدة.
- الاسم (قيلا) ٣ مرات.
- الاسم (قيله) مرة واحدة.
- الاسم (قائل) ٣ مرات.
- الاسم (قائلها) مرة واحدة.
- الاسم (قائلين) [1] مرة واحدة.

وفيما سبق أهم ملاحظ أهمها :

(1) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، مادة (ق و ل).

أولا : عدد الصيغ التي ذكرت في القرآن إحدى وخمسون صيغة ، أتى على رأسها (قال) = ٥٢٩ مرة ، ثم (قالوا) = ٣٣٣ مرة تليها صيغة (قل) = ٣٣٢ موضعا.

ثانيا : عدد المواضع التي ذكرت فيها مادة (ق و ل) بمختلف صيغها بلغت ١٧١٥ موضعا ، بعض هذي الصيغ جاء كثيرا جدا ، كما جاء في (أولا) وبعض الصيغ جاء مرة واحدة ، مثل : (ليقولن - قولنا - قيله) = باقي المواضع جاء أحيانا بالعشرات ، مثل : (يقولون) = ٩٢ مرة ، (يقول) = ٦٨ مرة (قيل) = ٤٩ مرة ، ثم أقل من عشرين ، مثل (قولا) = ١٩ مرة (يقولوا) ١٧ مرة (تقولوا) = ١٦ مرة ، بعض الصيغ جاء آحاد المواضع ، أو أقل من عشرة ، مثل (قلتم - أقول) كلاهما في تسعة مواضع (قائل) = ٣ مرات.

ثالثا : ومن الملاحظ عندنا أيضا كثرة الأفعال عن الأسماء في الصيغ التي زادت واحدة عن الخمسين ، إذ صيغ الأفعال جاءت ٥١/٣٦ ، في حين جاءت الأسماء أقل من نصف البسط ، إذ جاءت = ١٥ اسما ، أو في صيغة الاسم.

كل ما سبق يؤكد أهمية الحوار في القرآن ، وكيف اهتم به هذا الكتاب ، خاصة صيغتي (قال) و (قالوا) ولولا هذه الأهمية وذياك التوكيد بالشكل الذي لاحظنا ما جاءت صيغ (ق و ل) ومواضعها بهذا العدد والعديد ، وبهذه الصورة ، حيث اقتربت ذياك المواضع من ألفي موضع ، وزادت خمسة عشر عن الألف والسبعمائة.

ولأن العربية لغة حوار حي ومفاعل فإن التعويل أكثر على [1] السياق ، بدليل أن كثيرا من الأدوات تستقي وظائفها من السياق ، إذ الأداة الواحدة لها أكثر من وظيفة (دلالة) ونعطي بعض أمثلة :

(1) حول نظرية السياق انظر علم الدلالة ... للدكتور فريد عوض حيدر ، القاهرة ١٩٩٦ ، ص١٥٧.

١- اللام الطلبية : يمكن أن تكون [1] :

- أمرا ، مثل (لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن [2] سَعَتِهِ).
- أو دعاء (لِيَقْضِ عَلَيْنَا [3] رَبُّكَ).
- ويمكن أن تكون وظيفتها الالتماس ، مثل قول المدير (لنبدأ الاجتماع).

والفارق بين وظائف اللام فيما سبق هو السياق الذي يشي بتيك الوظائف ا ، ليس إلا.

٢- كأن : ولها عدة [4] وظائف (دلالات) منها :

- التشبيه : وهو الغالب عليها ، مثل (كأن الزوج في البيت أسد هصور).
- الشك والظن : (كأنك تخفي عني شيئا) بمعنى أظنك تخفي عني شيئا.
- التقريب والاقتراب : أي بمعنى اقترب ، مثل : (كأنك بالشتاء مقبل ـ كأنك بالفرج آت) أي : اقترب الشتاء وأقبل ـ اقترب الفرج وأوشك أن يأتي.

٣- هل : ومن وظائفها الرئيسة الاستفهام في الإيجاب ، ليس في النفي ، مثل : (هل صديقي صائم ؟).

هذا في الجملة الموجبة ، أما في النفي والسلب فتأتي الهمزة (أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ [5] ؟ ـ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ [6] صَدْرَكَ ؟).

---

(1) الكامل لأحمد صفوت ، ٣٤٩/٢.
(2) ٧ الطلاق.
(3) ٧٧ الزخرف.
(4) مغني اللبيب ١٩٢/١.
(5) ٣٦ الزمر.
(6) سورة الشرح.

وقد يراد بهل النفي ، فإذا أراد طفلك أن يأخذ شيئا دون إذن أو موافقة ـ فقلت له : (هل سُمح لك بهذا ؟) فالوظيفة هنا النفي ، إذ المعنى : (ما سمح لك بهذا).

وقد تأتي (هل) بمعنىً (قد) مثل : (هَلْ أَتَى عَلَى [1] الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً) أي : قد أتى على الإنسان ...

والذي يفرق بين كل هذي الوظائف هو السياق ، والأمثلة على ذلك كثر وكثر نختمها بمثال الأخير من حروف الجر ، والتي تعج بشواهد على ما نقول ، منها :

١ـ من : من أقوى حروف الجر ـ كما يقول [2] النحاة ـ ولذا تدخل على ما لم يدخل عليه غيرها من ظرف ملازم النصب على الظرفية ، نحو : (خرجت من عندك) وتأتي لعشرة معان / معاني (وظائف) منها :

أ ـ التبعيض : (لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا [3] تُحِبُّونَ) قرئ : (حتى تنفقوا بعض ما تحبون).

ب ـ ابتداء الغاية : (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى [4]).

ج ـ بمعنى (عن) : (يَا وَيْلَنَا [5] قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا) أي : عن هذا.

٢ـ اللام : ولها واحد وعشرون معنى : منها ، أو من هذي المعاني والوظائف ما يلي :

أ ـ انتهاء الغاية : (كُلٌّ يَجْرِي [6] لأَجَلٍ مُّسَمًّى) أي :إلى أجل مسمى.

---

(1) سورة الإنسان.
(2) الكامل لأحمد صفوت ٤١٧/١ ، ٥٢٠.
(3) ٩٢ آل عمران.
(4) الإسراء.
(5) ٩٧ الأنبياء.
(6) ٢٩ لقمان.

ب- الملك : (لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ [1] وَالأَرْضِ) أي : يملك الله ما في السماوات والأرض.

ج- الزائدة : أي زائدة نحويا ، لا بمعنى الزيادة الكريهة التي لا فائدة منها ، بل جاءت زائدة للتوكيد ، إذ يصدق هنا مثل النحاة الذائع الصيت : (زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى) والزيادة في المعنى تساوي توكيد المعنى ، ومن أمثلة اللام الزائدة قوله تعالى : (فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ [2] - مُصَدِّقاً لِّمَا [3] مَعَهُمْ).

وهكذا أعطينا فقط فقط مجرد أمثلة ، ليس إلا ، لا استقصاء وعد وإحصاء ، إذ لا سبيل إليه هنا ، ولا هنا مكانه.

ومن ثم نخلص من كل ما سبق وسلف إلى أن العربية لغة حوار حي متفاعل مواكب لحركة الحياة وتموجاتها.

القرآن نفسه الذي صنعه الإله ، جاء من السماء بالعربية زاخر بالحوار الحي المتفاعل والجدال بالتي هي أحسن ، وقد أعطينا منه أمثلة ، تبقى فقط فقط مجرد أمثلة تنأى عن العد والحصر المستقصي ، بفتح الصادر وكسرها.

وقد رأينا أن طابع الحوار وأن نجادل بالتي هي أحسن انتقل إلى العرب أصحاب اللغة وأبنائها ، من هذا أعطينا أمثلة ، كان منها قدرة حبر الأمة عبد الله بن عباس على إقناع عشرين ألفا من عتاة الخوارج على أميره (ﷺ) بالانسحاب قبل معركة النهروان - عام ٣٧ هـ - فأنقذهم من موت محقق وعار مشين تجلبه حربهم

---

(1) ١٧٠ النساء.
(2) ١٦ البروج.
(3) ٩١ البقرة.

لعلي بن أبي طالب (ﷺ) ومن هلاك أنفسهم أو الإصابة في هذي المعركة المشئومة التي قتل فيها من الخوارج ٢,٨٠٠ قتيل ، فضلا عن المصابين.

ولأن العربية لغة حوار حي متفاعل فقد كان التعويل كثيرا على السياق وعلى المسرح اللغوي ، فكان من ثمار هذا التعويل على السياق أن تجد الأداة الواحدة تثري بعديد العديد من الوظائف المتنوعة.

والآن انتهى ما سطره القلم في الجانب النحوي من دستور لغتنا حيث نبدأ بأمر الله ـ حوله وطوله ـ لتكتب بعيض الصفيحات حول البلاغة العربية ، أو بلاغة العربية.

انتهينا من نظام الجمة ـ أي النحو ـ والآن ندلف إلى البلاغة ، ولنا معها دقيقة وإن كانت موجزة ، إلا أننا ما تركنا هذا المجال من غير أن ندلي في دستور العربية دلاءنا ، مهما كانت وجازته وجيزة ، ناهيك عن الإسهاب ، وشيء من تطويل.

المادة السادسة والخمسون
{٥٦}

توازن العربية بشكل أدق بين الشكل المنمق وبين التركيب الأدق الأنسب للسياق وبين بيان المعنى وشدة وضوحا.

ونبدأ بعليمة عن البلاغة ونشأتها ، فنقول : أخذ علم البلاغة - في نشأته ونموه وتطوره - مساحة كبيرة من الزمن - تزيد على ثلاثة قرون - أسهمت في هذي القرون طوائف وأضرابا متعددة من لغويين (الكسائي والأصمعي والمبرد) ومتأدبين (أبو هلال العسكري وابن رشيق القيرواني وابن سنان الخفاجي) ومتكلمين (الرماني والباقلاني وعبد الجبار) ونقاد (ابن طباطبا والآمدي وعلى الجرجاني ، ومتفلسفة (قدامة وابن وهب).

غير أن هذا الجهود العظيمة لم تسفر عن نظرية متكاملة ، في أي من علوم البلاغة حتى جاء شيخها عبد القاهر (ت ٤٧١هـ) الذي أفاد من جهود كل هؤلاء - الذين سبقوه - ووضع نظريتي (علم المعاني) في كتابه (دلائل الإعجاز) و (علم البيان) في كتابه (أسرار [1] البلاغة).

أما عن البديع فننبس من المراغي [2] : (أول من دوّن البديع الخليفة عبد الله

---

(1) أبو شادي ، مصطفى : الحذف البلاغي في القرآن الكريم ، القاهرة ، ١٩٩٢ ، ص٧٢.
(2) أحمد مصطفى : علوم البلاغة ، بيروت ، ص٩.

ابن المعتز بن المتوكل العباسي ـ نهاية القرن الثالث ـ فقد استقصى ما في الشعر من المحسنات ، وألف كتابه الشهير (البديع) ذكر فيه ١٧ نوعا ، وقال : ما جمع قبلي فنون البديع أحد ، ولا سبقني إلى تأليفه مؤلف).

جدير ذكره أن كتاب أبي هلال العسكري [١] (الصناعتين) أول مصنف أشير فيه إلى مسائل علوم البلاغة :

- المعاني.
- البيان.
- البديع.

العسكري توفي نهاية القرن الثالث الهجري ، على التحديد ٢٩٥ هـ ، أي في وقت مبكر ، وقبل عبد القاهر بقرنين ، حيث توفي نهاية القرن الخامس الهجري ، مع الإقرار للجرجاني بعبقرية فذة في نظرية النظم ، وفي علمي المعاني والبيان.

وقبل أن ندلف إلى التوازن بين الشكل وبين المضمون في العربية والمتمثل في التوازن بين المعاني والبيان والبديع نشير إلى مسألة مهمة ، منها وبها ننطلق إلى ما نروم ونريد ، إنه التوازن في الأهمية والوظيفة بين أنواع الكلمة الثلاث ، الاسم والفعل والحرف ، خاصة وبخاصة النوع الأخير الحرف الذي وأشيع عنه يلعب دورا هامشيا ، بحيث لا يظهر له دور إلا مع شريكيه الاسم والفعل ، أو لا يظهر له دور يذكر مقرنة بقسميه الشريكين.

في شرح ابن عقيل [٢] والكلمة : (إما اسم ، وإما فعل ، وإما حرف ، لأنها إن

---

(1) السابق ، ص١٠.
(2) القاهرة ٢٠٠٥ ، ص ١٠٢٩.

دلت على معنى في نفسها غير مقترنة بزمان ، فهي الاسم ، وإن اقترنت بزمان فهي الفعل ، وإن لم تدل على معنى في نفسها - بل في غيرها - فهي الحرف).

انحياز واضح إلى الحرف على حساب قسيميه ، وهو ما وضع خريطة بعيدة عن الصواب عن الحرف بأنه لا يظهر إلا مع الآخرين ، ولا يدل على معنى في نفسه أو لا يستقل وحده بوظيفة ما في الكلام ، وهو ما دحضته دراستنا حول أثر حرف الجر في تغيير [1] معنى الفعل في القرآن الكريم ، وهذا اقتباس يؤيد ما وصلت إليه واستنتجته.

والآن آن الأوان من زمان ومكان لاقتباسنا المؤيد لدور مستقل للحرف غير متكئ فقط على القسيمين الشريكين :

إذا كان للأسماء والأفعال خصائص في التعبير فإن للحرف أيضا خصائص دقيقة ، فإن النفي بما غير النفي بلا ، وموضع استخدام إن الشرقية غير موضع إذا وبالمثل تختلف مواضع حروف الوصل والعطف ، ولذا لابد من معرفة مواضع الوصل والفصل بين العبارات [2] ، وهذا ما يمكن أن يكون موضع دراسة قادمة ، تنضم إلى دراستنا السابقة حول أثر حرف الحرف في تغيير معنى الفعل الذي سلفت إليه الإشارة.

فإذا انتقلنا من التمييز ضد الحرف لصالح شريكيه إلى البديع أحد علوم البلاغة مع شريكيه المعاني والبيان ، والذي يؤخر عنهما في ترتيب التأليف ، حيث يبدأ بالأول (المعاني ويثني بالبيان ، ليأتي البديع بعد قسيميه ، ولنترك هذا التأخير والترتيب إلى مكانه في أنه لنشير إلى تقسيم البديع نفسه إلى نوعين :

---

(1) نشرت في القاهرة ١٩٩٨م.
(2) البلاغة تطور وتاريخ للعلامة الدكتور شوقي ضيف رحمه الله - القاهرة ١٩٨٧ ، ص١٦٩.

- محسنات بديعية.
- محسنات معنوية.

فالأولى يرجع التحسين فيها إلى اللفظ أولا وبالذات ، ويتبعه تحسين المعنى ثانيا ، وبالعرض ، ويميز هذا النوع من المحسنات أنه لو غير أحد اللفظين بما يرادفه لزال ذياك المحسن.

ففي (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ [1] سَاعَةٍ) وهما كلمتان ، اختلفتا في المعنى ، لكنهما اتفقتا في نوع الأصوات وشكلها وعددها وترتيبها ، ولذا كان الجناس تاما بينهما.

المحسنات المعنوية نوسمها أن التحسين فيها راجع إلى المعنى أولا ، وبالذات ويتبعه تحسين اللفظ ثانيا ، وبالعرض - بتحريك الراء وليس بالإسكان - ويعرف بأنه لو غير اللفظ بما يرادفه لبقي المحسن ، كما كان قبل التغيير ، على عكس المحسنات اللفظية.

فمن النوع المعنوي (وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ، وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ [2] وَأَحْيَا) هنا طباق بين (أضحك) وبين (أبكى) وبين (أمات وأحيا) الطباق محسن معنوي ؛ إننا لو غيرنا اللفظ بمرادفه ، فوضعنا - مثلا - مكان أضحك (سر) وفي مكان أبكى (حزن) لم يتغير المحسن الذي خلعه الطباق على الكلام.

ويرغم هذا يرى دارسو البلاغة أن هذا التقسيم بين المحسنات اللفظية والمعنوية لم يحالفه توفيق ؛ لأن هذا فصل للجسم عن الروح ، والروح عن الجسم

(1) ٥٥ الروم.
(2) سورة النجم.

والجسد ؛ لماذا ؟ ولم ، ولمه ؟ لأن جمال الألفاظ يكمن في تعلقها بالمعاني ، وحسن المعاني لا يكون إلا في حضورها في تركيب ، وتيك النظرة التكاملية العنية كثيرا ما وكدها العبقري عبد القاهرة ، فالحسن الحقيقي في الكلام لابد أن يكون بسبب من اللفظ والمعنى كليهما ، يشارك فيه كل من الشكل والمضمون ، وليس في واحد منهما وحده [1] فقط.

والآن قراءة سريعة عجلى نحاول الخروج منها بملاحظ حول بعض كتب البلاغة العربية ومصادرها ، هما :

١- الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة ، تصنيف محمد بن علي الجرجاني (ت ٧٢٩هـ) تحقيق الدكتور عبد القادر حسين ، القاهرة ١٩٨٢.

٢- علوم البلاغة ، البيان والمعاني والبديع ، تأليف أحمد مصطفى المراغي ، بيروت ، ذكر المؤلف أنه فرغ من تأليفه ١٣٣٤ ، وهو ما يوافق ١٩م.

وسوف نحاول رصد بعض ملاحظ حول الكتابية باعتبارهما ممثلين للبلاغة العربية ، ومن ثم وجدنا ما يلي :

١- كلا الكتابين اشتملا على مقدمة متشابهة حول الفصاحة والبلاغة.

٢- بعد التقدمة قسما البلاغة بذات الترتيب إلى ثلاثة علوم :

- علم المعاني.
- علم البيان.
- علم البديع.

٣- وهنا نجد التوازن واضحا شديد الوضوح للتوازن بين هاتيك العلوم ، على ما يلي :

---

(1) البديع في ضوء أساليب القرآن الكريم ، د. عبد الفتاح لاشين ، القاهرة ٢٠٠١م ، ص٢٣ ، ٢٤.

<u>أولا ـ علم المعاني</u> : أو علم معاني النحو ـ كما أسلفنا ـ غير أن الفرق بين النحو ، أو (التراكيب) وبين المعاني ، أن الأول يتعلق بالكلام العربي العادي ، وفي الثاني النحو العالي ، أو الراقي ، الذي يعني بالمستوى اللغوي الراقي الأدبي الرفيع ومع هذا فالعلمان ملتقيان في كثير من الموضوعات ، وفي الشواهد.

فهذي مواضع وعناون ـ عناوين ـ في علم المعاني :

- الإنشاء والخبر.
- الذكر والحذف.
- التقديم والتأخير.
- التعريف والتنكير.
- القصر.
- الفصل والوصل.
- المسند إليه والمسند.

بقيت ثلاثة مواضع ـ مواضيع ـ هي :

<u>الإيجاز والإطناب والمساواة</u> : ولأهمية ذياك الموضوع فسوف نفرد له مادة خاصة في دستور العربية ، في موضعه.

<u>التقييد</u> : وهو نحو في نحو ، ففي أقسام التقييد :

- التقييد المفاعيل.
- التقييد بالتوابع.
- التقييد بضمير الفصل.
- في التقييد بالشرط.

فما فوائد التقييد ؟ يقول المراغي : (زيادة الفائدة وتقويتها لدى السامع لما هو معروف من أن الحكم كلما ازدادت قيوده ازداد إيضاحا وتخصيصا ، فتكون فائدته أتم وأكمل ، لا فرق في ذلك بين تقييد المسند إليه والمسند ، ولا بين التقييد بتابع ومفعول ، ونحو ذلك).

هذا كلام عام غير محدد ، ونحن في باب التقييد، ولذا لابد من أمثلة تحدد وتوضح فوائد هذا التقييد ، على ما يلي :

١- التقييد بالتوابع : وله فوايد عدة منها :

أ - التوكيد : نحو (تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ [1]) .

ب- المدح : (جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً [2] لِّلنَّاسِ) ، البيت الحرام عطف بيان على الكعبة لغرض مدحها بأنها حرم آمن.

ج- التجاهل (وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ [3] مُّبِينٍ).

٢- التقييد بضمير الفصل : يفيد في نحو :

أ - تمييز الخبر عن الصفة : (الفصيح هو جيد البيان ، طلق اللسان).

ب- التخصيص أو القصر : (أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ [4] عَنْ عِبَادِهِ).

٣- التقييد بالشرط : ومنه :

أ - قصد الاستمرار والاعتياد : (لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ [5] مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ) وكما نقول : (فلان يقري الضيف ، ويحمي الحريم ، أي مستمر معتاد على ذلك.

---

(1) ١٩٦ البقرة.
(2) ٩٧ المائدة.
(3) ٢٤ سبأ.
(4) ١٠٤ التوبة.
(5) ٧ الحجرات.

ب- تنزيل المضارع منزلة الماضي : لضرورة عن لا خلاف في وقوع أخباره (وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّار [1] -رُبَمَا يَوَدُّ [2] الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِين).

ونكتفي بتيك الأمثلة ، ولم رام تفصيلا أن يرجع إلى مصادر البلاغة المعتبرة [3] المختصة.

وقبل أن نترك التقييد نختم هذا التقييد باقتباس من المراغي ، إذ يقول في بداية الباب وافتتاحه [4] : وكثير من مسائل هذا الباب ذكر في كتب النحو على النحو الذي يشاكل بحث النحاة ، دون نظر إلى غامض الذوق ولطيف المزايا فإن فوائد التقييد من مقاصد علماء البلاغة الذين قصروا مباحثهم على تعرف خصائص التركيب ، وأسرار الأساليب ، وما فيها من دقيق الوضع ، وباهر الصنع.

والمقتبس السابق يوكد ويوكد ما نراه من أن مباحث المعاني هي في صلب (علم النحو) أو التراكيب ، مع الإشارة إلى أن المستوى البلاغة يرقى ويعلو إلى الخصائص والأسرار والدقة ، وما يصل من التراكيب إلى درجة الإبهار.

بقي أن نتحدث عن موضوع :

- الخروج عن مقتضى الظاهر : ويهدف هذا الخروج في اللغة بل وفي الحياة بشمولها ورحابة اتساعها ، كيف بالله عليك ؟ أنا أقول ذلك.

---

(1) ٢٧ الأنعام.
(2) ٢ الحجر.
(3) راجع : المراغي ، علوم البلاغة ، ص١٢٧ وقبلها.
(4) السابق بتصرف ، ص١١٩.

إننا أحيانا ، وفي أحايين كُثر ، نحن بحاجة إلى كسر الرتابة والنمطية ، انظر - يا رعاك الله - إلى الطرق التي تسير عليها عجلات السيارة والسيارات ، والقطارات إنك تجد الآتي لقطع الرتابة والملل ، بل وغفلات النعاس :

١- عين القط ، قطع لامعة من الحديدة ، تظهر في الظلام ، تثير صوتا وجلبة في عجلات المركبة حتى يتنبه السائقون ، إن فاجأتهم غفلة عين.
٢- المطبات المصطنعة.
٣- الأنوار المرشدة.
٤- التفاف الطريق ولفته يمنة ويسرة حتى لا يغفل السائق إن أرهقه السفر ، بل يبقى دوما يقظا متنبها.

البعد عن النمطية هي ما فرق الإنسان عن الحيوان ، دوما تجد الإنسان يفاجئ من حوله في فعله وقوله ، يخرج من مسار النمطية وقيودها.

ولذا فإن العربية ليست بدعا في هذا الشأن والسلوك ، إنما هي على اتساق ووفاق مع حركة الحياة وفلسفتها وأسس نجاحها ، لذا فإن العربية كثيرا ما تفجؤك بالخروج عن مقتضى الظاهر الباده إلى ما لا يتوقع ، بل هو يفجأ ويكسر الرتابة ، وهذا سر النكتة المضحكة أو المبهرة.

فأنت إذا قلت لمحدثك - مثلا مثلا - مثل : (يا داخل بين ....) فهو يتوقع اكتمال المثل ، كما هو المشهور المألوف المعروف ، فإذا قلت : (.... بين التفاحة وقشرتها ما ينوبك إلا حلاوتها) كما أحور الأمثال :

- نحن نغزل برجل غزال !! بدل ....
- اسأل المجرب ، ولا تنسى الطبيب ، بدل .....
- اجعل نصفك عاقلا ، ونصفك عاقلا.

فلنترك المقدمات والفذلكة والفلسفة إلى سلوك العربية وأمثلة من خروجها على الظاهر ، منها :

١ـ الالتفات : بين التكلم والخطاب والغيبة ، مثل :

أ ـ تحول من التكلم إلى الخطاب (وَمَا لِي لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [1]) بدل (أرجع) للمتكلم.

ب ـ من الغيبة إلى الخطاب : (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۞ إِيَّاكَ نَعْبُدُ) بدل (إياه نعبد).

٢ـ التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي : وذاك للدلالة على تحقق وقوعه (وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ [2] ...) فقد جعل المتوقع الذي لابد من وقوعه بمنزلة الواقع.

٣ـ تغليب المذكر على المؤنث : (وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ [3]) أدرجت السيدة مرسم ـ عليها السلام ـ في القانتين من الرجال تغليبا لهم على القانتات ، ومن ناحية أخرى فقد غلبوا المؤنث على المذكر ، أو بمعنى آخر معاملة المذكر على أنه مؤنث ، كيف بالله عليك ؟.

أنا أقول لك ، جاء في المزهر [4] : لم يأت مؤنث على المذكر إلا في ثلاثة أحرف :

الأول : تقول : صمت عشرا ، ولا تقول : صمت عشرة ـ أي عشرة أيام ـ ومن ناحية أخرى ، فإن الصوم لا يكون إلا بالنهار ، ولا يكون بالليلة ألبتة ، ومن ثم فلا يتصور أن يكون التقدير : صمت عشر ليالٍ ، هذا لا يكون.

ولذا نجد في الحديث الشريف : من صام رمضان وأتبعه ستا من شوال ، فأنت تقول : سرت عشرا ، أي من يوم وليلة ، أي سرت عشر ليال أو عشر أيام.

---

(1) ٢٢ يس.
(2) ٤٤ الأعراف.
(3) ١٢ التحريم.
(4) ١ / ٨٧.

الثاني : يقولون (الضبع) للمؤنث ، وللمذكر (ضِبعان) فإذا جمعنا بين الضبع والضبعان ، قلنا (ضبعان) فأخذنا بتثنية المؤنث ـ ليس المذكر ـ وغلبنا المؤنث على المذكر ، ولم نأخذ بتثنية المذكر ، وغلبناه على المؤنث ، إذ لم نقل (ضبعانان) مثنى (ضِبْعان) قال السيوطي : كرهوا الزيادة.

الثالث : إن النفس مؤنثة ، فيقال (ثلاثة أنفس) على لفظ الرجال ، إذا كان المقصود ثلاثة أنفس من الرجال ، إذ لا يقال : ثلاث أنفس ، في هذي الحالة ، إلا إذا كان المقصود لفظ كلمة (نفس) أو : ثلاث أنفس ، من النساء ، أو من المؤنثات ، أما إذا عنيت الرجال فعليك أن تقول : عندي ثلاثة أنفس.

وهذا نوع من المنطق والواقع ، مالت العربية فيه إلى المعنى ، وحادت عن النمطية ، فلفظة (نفس) إن أريد بها نفس رجل أو مؤنث عوملت على المعنى ـ هنا ـ وإن أريد بها معنى النساء عوملت معاملة المؤنث ، وهكذا نقول :

- ثلاثة أنفس ، من الأولاد.
- ثلاث أنفس ، من البنات.

وكذا في مثل (رهينة) نقول : (ثلاثة رهائن من الجنود) مع أن (رهينة) مؤنثة بعلامة التاء ، في حين نقول : ثلاث رهائن من الصحفيات [1].

ثانيا ـ علم البيان : وفي العربية الاهتمام ليس بمعاني النحو فقط ، أو مجرد (التراكيب) فقط ، بل يمتد في توازنه إلى المعاني ، كيف ؟ يرى البلاغيون أن علم المعاني يمكن بمعرفته إبراز المعنى الواحد في صور مختلفة وتراكيب متفاوتة في وضوح الدلالة مع مطابقة كل منها لمقتضى الحال [2].

---

(1) السابق.
(2) المراغي ، علوم البلاغة ، ص١٨٩.

انظر كيف جمع البلاغيون بين :

- إبراز المعنى ووضوح الدلالة.
- تراكيب متفاوتة.
- مطابقة مقتضى الحال.

توازن واضح بين المعنى والتراكيب ومقتضى الحال ، تيك سمة العربية بين الشكل والمضمون ، ثم مراعاة المقام ، فلكل مقام مقال.

فما موضوع هذا العلم ؟ إنه اللفظ العرب من حيث التفاوت في وضوح الدلالة بعد رعاية مطابقة مقتضى الحال.

وتنحصر بحوث علم البيان في المجاز على اتساعه وفي جميع أنحائه ، بالمعنى الأعم ، يشمل الكناية ، وبرغم إن التشبيه مما يبدأ به في دراسة (البيان) فإنه ذكر فقط لبناء الاستعارة عليه ، إذن فمن البدهي أن نبدأ هنا بالمجاز - أي المرسل - ثم الاستعارة فالتشبيه ، وليس كما يقع الآن في كتب البلاغة.

إذن نحن في البيان أمام تحول في المعنى ، هو جائز ، أو مجاز ، أي مقبول مسموح به ، وعليه فإننا نبدأ ونسير بهذا الترتيب الآتي :

الحقيقة والمجاز - الاستعارة - التشبيه - الكناية.

١- المجاز والحقيقة : الحقيقة هي من حققت الشيء إذا أثبته ، ثم نقل إلى الكلمة الثابتة أو المثبتة ، في مكانها الأصلي ، والتاء فيها [1] للنقل من الوصفية إلى الاسمية.

---

(1) في كلمة (حقيقة).

والحقيقة اللغوية هي الكلمة المستعملة فيما وضعت له في التخاطب ، في حين إن المجاز هو ما لا يستعمل من الكلمات فيما وضع له ، مثل استخدام (الأسد) للرجل الشجاع.

اشتقاق المجاز من الجواز ، وهو التعدي ، من قولهم : (جزت موضع كذا) إذ تعديته ، وقد سمي به المجاز هنا لأنهم جازوا به موضعه الأصلي ، أو جاز هو مكانه الذي وضع فيه أولا.

مرة أخرى ، المجاز : الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له ، في اصطلاح التخاطب لملاحظة علاقة بين المعنى الأول (الحقيقة).

والمعنى الثاني (المجاز) مع قرينة تمنع إرادة المعنى الأول ، مثل (الغيث) إذا استخدم بمعنى (النبات).

والمجاز نوعان :

الأول ـ المجاز المرسل : وهو ما كانت العلاقة بين ما استعمل فيه وما وضع له ملابسة ومناسبة غير المشابهة ، مثل استخدام (اليد) بمعنى النعمة ، أو السخاء والعطاء ، قال المصطفى (ﷺ) : (أسرعكن لحوقا بي أطولكن يدا) المراد : من تبسط يدها بالبذل والعطاء.

الثاني ـ المجاز غير المرسل : حيث تكو العلاقة بين المعنيين علاقة مشابهة ، وهو ما يكون في الاستعارة ، وهي تشبيه حذف أحد طرفيه وأداته ووجه الشبه ، كما إذا قلت : (رأيت بحرا ، يعطي القانع والمعتر) تقصد بالبحر الجواد الكريم المعطاء ، ولا نريد أن نفيض في أنواع الاستعارة وأشكالها وأضرابها ، إذ يسطيع القارئ أن يرجع إلى كل ذلك في كتب البلاغة ومصادرها.

وكذا ما يتعلق بالتشبيه ، مع الإشارة إلى أن التشبيه هو مسألة تخص تركيب الجملة في المقام الأول ، ولا يخص المجاز ، وبالتحديد الاستعارة ، وإنما جاء التشبيه ضمن بحوث البيان بسبب اعتماد الاستعارة على التشبيه ، أو كون الاستعارة تشبيها سقطت - أو حذفت - بعض عناصره وأجزائه.

الكناية : اللفظ المستعمل في غير ما وضع له لملاحظة علاقة مع جواز إرادته معه ، وعليه فهي واسطة بين الحقيقة والمجاز ، فهي ليست حقيقة ، ولا مجازا ، إنما هي حلقة وسطى بينهما.

إذن فالفرق بين الكناية والمجاز بنوعيه المرسل والاستعارة يكمن في أن الكناية لا يمتنع فيها إرادة المعنى الأصلي ، فإذا قلنا : (فلانة نئومة الضحى) فالمعنى البعيد المراد هو أنها (مترفة مخدومة) وفي ذات الوقت لا يمتنع أن يراد المعنى الأول ، أي بالفعل تنام إلى الضحى.

إلا أنه في الاستعارة ، كما في مثل (رأيت قمرا منيرا) إن قصدت رأيت وجها جميلا يشبه ، فإن هذا المعنى الأخير فقط ، ولا يصح أن يراد القمر الذي في السماء.

وكذا في المجاز المرسل [1] ، مثل (فلان عنده مائة رأس من الماشية) المقصود مائة قطعة كاملة من الماشية ، وليس الرءوس فقط ، كما لقول السائقون : (العجل كثر في الموقف) أي السيارات ، وليس العجلات فقط ، وإطلاق العجلة على الدراجة ، مع أنها ، أو إذا أنها مكونة من عجلتين غالبا ، ليس من عجلة واحدة ، فلا يصح في كل ما سبق أن يراد المعنى القريب ، كما أوضحنا.

(1) المراغي : علوم البلاغة ، راجع ص٢٩٥ وقبلها.

ثالثا : علم البديع : تعرف به الوجوه والمزايا التي تكسب الكلام حسنا وقبولا - أي في الشكل - بعد رعاية المطابقة لمقتضى الحال التي يورد فيها ، ووضح الدلالة ، وهنا عود إلي السياق والدلالة ، وهو اتضح في العلمين السالفين (المعاني والبيان).

ويتوزع البديع على قسمين المحسنات اللفظية والمحسنات المعنوية ، وهذا أيضا توازن بين اللفظ والمعنى ، وهذا شيء من التفصيل للتعرف على القسمين ، كيف ؟.

١- المحسنات اللفظية : وفيها ما يلي ...

أ - الجناس : تشابه الكلمتين في اللفظ مع اختلاف [1] المعنى ، مثل (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ) الساعة الأولى هي القيامة ، والثانية واحدة من الساعات ، ليس كما هو الآن ، ولكن الساعة في السابق كانت تعني لحظة من الزمن سريعة ، ليس كما هو الآن.

وقضية الجناس تمتد من الشكل البديع إلى الدلالة والتركيب ، كيف ؟ نترك البديع لعلماء البديع من البلاغيين ، فننظر إلى التراكيب ، وقبلها الدلالة.

فالذي حدد الدلالة في المثال الذي استشهد به حدد التراكيب معنى كل ساعة منهما (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ) الفعل (تقوم) وقبله (ويوم) حددا الساعة بأنها يوم القيامة ، في حين جاء ما قبل (الساعة) الثانية موجبا دلالتها على لحيظة من الزمن (ما لبثوا غير...) هذي الجميلة حسمت معنى الكليمة بعدها.

وإذا تركنا الجناس المماثل إلى قسيمه المستوفي ، أي ما كان اللفظان من نوعين كاسم وفعل ، كما تقول : (سميته يحيي كي يحيي) الكلمة الأولى اسم ، والثانية فعل ،

---

(1) السابق ، ص ٣٣١.

وهذي مسيألة تركيبية نحوية وصرفية ، فالاسم مفعولا به ، في حين جاء الفعل مكونة لجملة من هذا الفعل والفاعل المستتر ، وهكذا يتم التكامل ما بين الدلالة والتراكيب.

الجناس أيضا قد يكون مركبا من أكثر من عنصر أو كلمة ، مثل قول القاضي الفاضل :

عضنا الدهر بنابه	ليت ما حل بنابه
لا يوالي الدهر إلا	خاملا ، ليس بنابه

الجناس في (بنابه) بين (بنابه) في الشطر الأول والمكونة من حرف الجر الباء + كلمة ناب + هاء الضمير ، أما في نهاية السطر الثاني فإننا أمام أربعة عناصر = باء الجر + الضمير نا + باء جار + هاء الضمير ، وهذا الثاني تركيب مختلف تماما عما جاء في الشطر الأول.

أما الأخيرة نهاية الشطر الأخير مكون من عنصرين هي = باء الجر + كلمة نابه ، فالتركيب في هذي الثلاث مختلف تماما تماما ، والاشتقاق أيضا مختلف ، فالناب وهو نوع من الأسنان يختلف (نابه) اسم فاعل من الفعل (نبه) ومن ثم فإن الجناس يمكن أن يدرس من صرفية ونحوية ، أو قل (تركيبية) بل ودلالية سياقية أيضا.

بل يمكن أن يخضع لدراسة صوتية ، كيف ؟ إن من صور الجناس الاختلاف في الأصوات ، مثل :

- الاختلاف بين الحركة والسكون (البدعة شرك الشرك) الاختلاف بين (شرك) الأولى تحرك الراء ـ مع فتح الشين ، وبين (شرك) الثانية المعرفة بالألف واللام هو سكون الراء ، مع كسر السين وليس فتحها.

- الاختلاف في عدد الأصوات ، مثل (وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ۞ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ [1]) الجناس بين لفظتي (الساق / المساق).
- الاختلاف في ترتيب الأصوات : (حسامه فتح لأوليائه ، حتف لأعدائه) الجناس بين (فتح) و (حتف).

كل هذا له تفصيله في كتب البديع يمكن لمن رام تفصيلا أن يراجعها ، هذا التفصيل الذي يمكن أن يعالج بدراسة صوتية صرفية ودلالية ، فهذا تكامل بين المستويات الدلالية والصرفية والصوتية ، أو تكامل بين الشكل والمضمون اللفظ والمعنى.

ب - السجع : أن تتواطأ الفاصلتان في النثر على (حرف) واحد ، وهذا السجع لا يحسن كل الحسن إلا إذا استوفى أربعة شروط ، كما ينص البلاغيون :

- أن تكون المفردات رشيقة أنيقة ، خفيفة على السمع.
- أن تكون الألفاظ خدما للمعاني ، وإلا كان متلطفا ممتونا ، وهذا تكامل بين اللفظ والمعنى ، كما هو ظاهر.
- أن تكون المعاني الحاصلة من السجع مألوفة معروفة ، غير مستنكرة.
- أن تدل كل واحدة من السجعتين على معنى مغاير لما تدل عليه الأخرى.

ومتى استوفى السجع ما سبق من شروط كان تحلية ظاهرة في الكلام ، ولذا لا تجد لبليغ كلاما ما يخلو منه ، بل لا يخلو منه سورة مهما قصرت ، ليس في نهايات الآيات فقط ، لكن في الوسط أيضا (لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ ، وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ [2]).

وينقسم السجع إلى ثلاثة أضرب ، هي : المرصع والمتوازي والمطرف

---

(1) سورة القيامة.
(2) ١٠٠ الأعراف.

- المرصع : ما اتفقت ألفاظ إحدى السجعتين - أو أكثرها - في الوزن والتقفية (ليكن إقدامك توكلا ن وإحجامك تأملا).

- المتوازي : ما اتفق فيه الفقرتان في الكلمتين الأخيرتين فقط (فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۞ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ [1]).

- المطرف : ما اختلفت فاصلتاه في الوزن ، واتفقتا في الصامت الأخير (معاليه محط الرحال ومقصد الآمال [2]).

بقيت مسألة مهمة إليها تجدر الإشارة ، وهي أن الإعراب يمكن أن يحجب بسبب السجع ، قال الجرجاني : ويكتفي في السجع بالوقف على السكون ؛ لئلا يلزم الحرج في الكلام ، ألا ترى أنك لو أعربت لفسد أكثر الأسجاع ن كقول البستي :

إذا سلك لم يكن داهية دعه فدولته ذاهبة

ولا ينكر ذلك ، فإنه إذا جاءوا إخراج الكلمة عن وصفها - ووصفها الإعرابي - كصرف مالا ينصرف ، نحو قوله تعالى : (قَوَارِيرَا ، قَوَارِيرَا - سَلَاسِلَا وَأَغْلَالاً [3]) وقولهم (إني آتية بالغدايا والعشايا) مع امتناع - وعدم صحة - (الغدايا) فعدم شرط الإعراب في الفواصل أولى لعدم كون الإعراب شرطا في حسن الكلام [4].

ولنا تعقيب عاجل على ما اقتبس ، هو :

الإعراب ليس شرطا في حسن الكلام ، هذا ما يجب أن نوكده لقارئ العربية ، إذ يحكى أن الإعراب ليس النحو ، والنحو ليس الإعراب ، إنما الإعراب جزء من

---

(1) ١٣ ، ١٤ الغاشية.
(2) المراغي ، علوم البلاغة ، ص ٣٣٧ وقبلها.
(3) سورة الإنسان.
(4) السابق ، ص ٣٠٠.

النحو ، جزء واحد فقط ، ليس إلا.

بل إن هذا الإعراب الذي ينظر إليه على أنه شيء مخوف ومخيف يحجب ـ كما رأينا ـ بسبب الفواصل ، وبسبب السجع أيضا ، وقد فصلنا شيئا من هذا في مكان آخر ، وفي ذياك المكان أشرنا إلى مواضع حجب الحركة الإعرابية ، أو الإعراب بشكل عام،

فمن مواضع حجب الإعراب :

- الإدغام الكبير : كما في قوله تعالى : (وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ [1]) بإدغام الباء في الباء ، بدل جر كلمة (الغيب) بالكسرة بسبب حرف الجر (على).
- العد : عندما نقول : (واحد ـ اثنان ـ ثلاثة ـ أربعة ...) كل هذا بالسكون ، دون إعراب ، ولا تنوين.
- نطق حروف المعجم مفردة : ألفْ ، باء ، تاء ، ثاء ... واو ، ياء ، فإن أدخلتها في جملة كان الإعراب والتنوين ، تقول : (هذه ألف حسنة ، وباء جميلة).
- ظاهرتا التنوين والإعراب مختصتان بالوصل دون الوقف ، إذ يحجب التنوين والإعراب عند الوقف الذي يكون إما بالسكون ، أو الحركة الطويلة إذ نجد حركة الإعراب أو البناء القصيرة تحذف أو تسقط ، ويبقى الصامت الساكن ، كما في :
  - (جاء محمد).
  - (مررت بخالد).
  - سلمت عليكْ) بسكون الكاف.

1

- (علي سلمْ) بالسكون بدل فتحة البناء.
- إياك نعبدْ).

- ظاهرة الإسكان : بالتخلص من الحركة الإعرابية ، وقدمنها في القرآن الكريم كثيرا وكثيرا ، ففي قراءة أبي عمرو بن العلاء - وهي قراءة سبعية - نجد أمثلة ، منها (فَتُوبُواْ إِلى [1] بَارِئكُمْ) بسكون الهمزة بدل كسرة الجر، ومنها سقوط حركة الإعراب في الأفعال (يأمر - ينصر - يشعر) في بعض [2] السياقات.

ونضيف هنا هذا الموضع ، أي عند الأسجاع ، هنا موضع من مواضع حجب الحركة الإعرابية ، واعتراف مهم لأحد علماء البلاغة هو محمد الجرجاني (ت ٧٢٩هـ) بشيء مهم ، هو :

عدم كون الإعراب شرطا في حسن الكلام ، أو ليس شرط الشروط في حسن الكلام ، إذ رأيناه في أيحان كثيرة يحجب ويستغني عنه.

والآن فرغنا من تسطير ما عنّ لنا عن المحسنات اللفظية ، لندخل في :

٢- المحسنات المعنوية : وتختلف القسيم الآخر في أن المحسنات اللفظية حيث البديع والتحسن راجع إلى اللفظ في الأساس والأصالة وإن حسنت المعنى أحيانا كما سبق في : (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ المُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ) الأولى تعني يوم القيامة ، والثانية ساعة أو سويعة من الزمن القليل جدا.

وعلامة المحسن اللفظي أنه لو غير اللفظ الثاني إلى ما يرادفه في المعنى لزال ذياك المحسن ، فلو قيل - مثلا مثلا - ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير قليل و إلا قليلا لضاع الحسن أو لضاع الجناس واختفى.

---

(1) ٥٤ البقرة.
(2)

وعلى العكس مما سبق تجد المحسنات المعنوية تعتمد ويرجع حسنها إلى المعنى أولا أولا وبالذات ، وإن كان بعضها قد يفيد في تحسين اللفظ أيضا ، كالطباق في (يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ [1]).

علامة المحسن المعنوي أنه لو غير اللفظ بما يرادفه - مثلا مثلا - فقيل : يعلم ما يخفون وما يظهرون ، لم يتغير المحسن ، أو لم يغب الطباق.

انظر - عزيزي القارئ - إن المحسنات بنوعيها تتكامل وتتوازن خدمة للفظ والمعنى ، أو لشكل والمضمون ، فالمحسن المعنوي معتمد متكئ على المعنى وإن أثر في اللفظ ، وقسيمه الآخر يحسن اللفظ في الأساس والأصالة ، وإن حسن اللفظ - أحيانا - وزينه ، نقطة مهمة وارتكاز واضح وتركيز على التوازن بين القسيمين ، والتحسين في اللفظ وفي المعنى ، أو في المعنى واللفظ.

بقيت كليمة عن أشهر المحسنات البديعية المعنوية بتركيز واختصار ، كما يلي :

أ - الطباق : الجمع بين معنيين متقابلين ، هذا الطباق أو المطابقة قد تأتي بين لفظين من نوع واحد ، سواء أكانا اسمين ، نحو : (وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ [2]) أم فعلين (تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء [3]...) أم حرفين (لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا [4] اكْتَسَبَتْ).

ومن الطباق نوع يسمى بالمقابلة ، حيث يؤتي بمعنيين متوافقين أو أكثر ، ثم يوتى بما يقابل ذلك على سبيل الترتيب ، كيف ؟ :

---

(1) ١٩ النحل.
(2) ١٨ الكهف.
(3) ٢٦ آل عمران.
(4) ٢٨٦ البقرة.

- مقابلة اثنين باثنين ، في الحديث الشريف : (عليك بالرفق - يا عائشة - فإنه ما كان في شيء إلا زانه ، ولا نزع من شيء إلا شانه).
- ومقابلة ثلاثة بثلاثة كقوله تعالى : (وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ [1]) إذ المقابلة بين :

يحل / يحرم

لهم / عليهم

الطيبات / الخبائث

- ومقابلة أربعة بأربعة (فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى ۞ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ۞ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۞ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى[2]) إذ المقابلة بين :

أعطى / بخل

اتقى / استغنى

صدق / كذب

لليسرى / للعسرى

وقد تزيد المقابلة بين خمسة وخمسة أو ستة [3] وستة.

ب- التورية : أن يذكر المتكلم - أو الكاتب - لفظا له معنيان ، أحدهما قريب ، ودلالة اللفظ عليه ظاهرة ، والآخر بعيد ، ودلالة اللفظ عليه خفية ، ويريد المعنى البعيد ، ويوري عنه بالمعنى القريب ، فيقوهم السامع - أو القارئ - لأول وهلة أنه

(1) ١٥٧ الأعراف.
(2) ٥ - ١٠ الليل.
(3) المراغي : علوم البلاغة ، ص٣٠٠.

يريد المعنى القريب ، وهو غير مراد ، بل المراد المعنى البعيد ، كيف ؟ بالمثال يظهر ويتضح المقال.

قال تعالى : (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى [1]) الاستواء له معنيان ، أحدهما الاستقرار في المكان ، وهو المعني القريب المورى به ، وهو غير المقصود ، أو هو غير مقصود ، إذ الحق (ﷻ) منزه عن ذلك والثاني الاستيلاء والملك ، وهو المعني البعيد المقصود الذي وُري عنه بالمعنى القريب المذكور.

ب- المذهب الكلامي : أن يأتي البليغ على صحة دعواه وإبطال دعوى خصمه بحجة عقلية قاطعة ، لا سبيل على الطعن - أو الشك - فيها.

ولم تأت شواهد هنا أعظم من شاهد القرآن الكريم ، فمن لطيف هذي الشواهد :

- (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا [2]) هذا تمام وكمال الدليل ، فالسماوات والأرضون ما فسدتا وهذا دليل وكيد على وجود إله واحد ، لا غير ، لا إلهين ، فضلا عن أن يكونا أكثر من اثنين.
- (فَلَمَّا أَفَلَ) أي القمر ، قال إبراهيم (عليه السلام) : (لا أُحِبُّ الآفِلِينَ [3]) لأن تحليل القياس : القمر آفل ، بعيد فترة يغيب ويأفل ، وربي ليس كذلك ، إذن فالقمر ليس برب لي ، أو ليس ربي.

وإذا كان كتاب العربية الأول والأهم وهو القرآن الكريم قد أثرى لغته بشواهد حسن التعليل ، فهذا ما يؤذن ويوكد أن العربية ليست لغة محسنات لفظية أو معنوية

---

(1) ٥ طه.
(2) ٢٢ الأنبياء.
(3) ٧٦ الأنعام.

أو لغة استعارة وتشبيه وكناية ، بلاغة محلقة تطير بعيدا عن واقع حياة الناس ومعايشهم ، بل هي لغة دليل وبراهين تميل معه حيث ميل هذا الدليل.

ففي الكتاب العزيز وردت لفظة (برهان) مفردة ومثناة فقط ، غذ لم تأت مجموعة البتة ، فهل المقصود أن نعمد ونتكئ على برهان واحد قوي وأكيد ، ما يحتاج إلى برهان غيره ، أو براهين تتعدد ، تحصى وتتعد.

المرة الوحيدة التي جاءت لفظة (برهان) فيها ، كان قوله تعالى : (فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ [1]) ذانك البرهانان كانا :

- (اسْلُكْ) يا موسى : (يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء ، مِنْ غَيْرِ سُوءٍ).
- (وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ ...) يديك ، شبههما بالجناح.

على أي الأحوال وقعت لفظة (برهان) مفردة ٧ مرات ، مرتين نكرة ، وباقي المرات ، وهن خمس جاءت (برهان) مضافة ، معرفة غير منكرة ، بهذا الشكل (برهان ربه - برهانكم).

هذي المواضع الثمانية التي جاءت فيها لفظة (برهان) نلحظ عليها ما يلي :

١- في نصف تيك المواضع - أي أربع مرات - كانت مطالبة القرآن الكريم للقاسطين (...هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ) حتى في الآخرة عندما يحكم على القوم بنيران جهنم كيف ؟ قال تعالى : (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ) أي المشركين : (أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ؟ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ، فَقُلْنَا : هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ، فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا [2] يَفْتَرُونَ).

---

(1) ٣٢ القصص.
(2) ٧٤ ، ٧٥ القصص.

إنه نداء من الله - على سبيل التقريع والتوبيخ - لمن عبد مع الله إلها غيره ، الرب يناديهم - يوم القيامة - على رءوس الأشهاد : (أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ تَزْعُمُونَ) وهو ما كان منهم في الدار الدنيا.

ولم تقف الآيات عند هذا الحد ، بل ذكرت : (وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً) يشهد على القوم ، أو على قومه ، بأنه بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ولكنهم ما انتفعوا برسالة رسول ربهم إليهم ، فعبدوا غيره ، وبه وبعبادته أشركوا غيره.

ومن ثم قال لهم ربهم : (...هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ) على صحة ما ادعيتموه من أن لله شركاء ، أي القصة والقضية وأصل الحكي والحكاية (هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ) وبطبيعة الحال لم يجدوا برهنا أو شيئا من برهان ، أو أي شيء يمكن أن يقولوه لربهم [1].

٢- وفي سورة المؤمنون [2] وفي ذات القضية ، أي قضية الإشراك برب السماوات والأرضين ، يقول الرب (ﷻ) : (وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ ...) هل يصفه ربه بالضلال ، وهو بالفعل ضال ، هل يصفه أو يسمه بالخطل أو الخطأ ؟ كلا ، هل يعيب عليه مما سبق شيئا ؟ كلا وألف إنه يعيب عليه غياب البرهان والدليل ، وهو ما استحق الحساب أو حساب ربه ، أو عند ربه.

اقرأ الآية مرة أخرى : (وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الكَافِرُونَ) وقد جاءت هذي الآية قبل نهاية السورة المؤمنون - بآية واحدة ، جاءت ختاما للسورة ، هي : (وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ) فهل جاء هذا صدفة مصادفة ، أم هناك مغزى وهدف صده القرآن قصدا ؟ .

---

(1) راجع تفسير ابن كثير ٢٢٣٨/٤.
(2) آية ١١٧.

ثم ، ثم ماذا ؟ نعود إلى المذهب الكلامي ، أو دقة التعليل ، لنتأمل لنسّاءل مع المسّائلين ، أين وضع علماء العربية هذا كله ؟ لقد وضعوه في البديع ، في المحسنات المعنوية ، فتأمل - يا أخا بني يعرب - لغتك العربية لتعرف أين تضع لغتنا الحجة والبرهان والدليل ، حتى في يديها يا عربي بني يعرب تتحدث العربية عن دقة التعليل والتدليل.

لغته أخيرة نختم به شريح - تصغير شرح - هذي المادة السادسة والخمسين لعربية بني يعرب نقتبسه اقتباسا من أحد كتبي هو :

(التراث العربي في كتب تفسير الأحلام ، دراسة في اللغة والثقافة والحضارة [1]) نقتبس أن الرؤيا المجافية للعقل ، والعقل لا تفسير لها ، بل لا اعتبار لها ولا وزن ، كيف ؟

يقول ابن سيرين: (ومن الأحلام الباطلة أضغاث الأحلام ، وهو أن الإنسان كأن السماء صارت سقفا ، ويخاف النائم أن يقع عليه ، أو أن الأرض رحى تدور ، أو ينبت من السماء أشجار ، أو طلع من الأرض نجوم ، أو تحول الشيطان ملكا - بفتح اللام - والفيل نملة ، وما أشبه ذلك ، ولا تأويل لهذا ، ومن ذلك رؤيا يراها الإنسان عند تشويش طبائعه ، واضطراب نفسه ،فهذا كله من الرؤيا التي لا تأويل لها).

جاء أعرابي إلى سيد الخلق (ﷺ) فقال : يا رسول الله ، رأيت في المنام كأن رأسي ضرب فتدحرج ، فاشتددت على إثره ، فقال رسول الله (ﷺ) للأعرابي : لا تحدث الناس بتلعب الشيطان بك في منامك.

---

(1) نشر بالقاهرة ٢٠٠٦ ، انظر ص١١٥.

ولا يكتفي سيد الخلق بما سبق ، بل يقوم للناس خطيبا ـ كما روى الصحابي جابر (ﷺ) راوي الحديث السابق ليقول : لا يحدث أحدكم بتلعب الشيطان به في منامه.

هذا نصح للأمة كلها ، لا للأعرابي وحده ، لا تحدثوا بتلعب الشيطان بكم [1].

تيك الرؤى نوع من التخويف والتحزين من الشيطان ، تلعب منه بخلق الله المؤمنين ، قال تعالى : (إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إلا بإذن [2] اللَّهِ).

وهكذا ترى حضارة القرآن وحضارة العربية أن المنطق والعقل هما من أسس الحياة المعمول بها ، حتى في تفسير المنامات والرؤى والأحلام ، فتأمل يا أخا بني يعرب.

(1) السابق ، ص٤٨.
(2) ١٠ المجادلة.

المادة السابعة والخمسون
{٥٧}

تميل العربية إلى الإيجاز والاختصار والاختزال ، وبرغم هذا فالعربية ليست لغة نمطية ، بل هي تستجيب للسياقات المختلفة ، فتراها تطنب أو تلجأ إلى المساواة حين يحتاج إليهما أو يضطر.

وفي البلاغة العربية درس مهم ، ومعلم أهم من معالم العربية يسطره دستورها ، إنه :

الإيجاز والاطناب والمساواة

بما أن اللغة العربية توسم دوما بأنها لغة شاعرة وأبرز خصائص الشعر وأهم سمات لغته هو الاختصار والتركيز والاختزال ، ومع هذا فإن العربية ليست نمطية تسير في اتجاه واحد إجباري ، هو هنا الإيجاز ، بل تلبس لكل سياق لباسه وهيئته ، فتجاوز الإيجاز إلى المساواة ، بل تمتد إلى أقصى الخط ، حيث الإطناب ، هكذا :

مساواة

إيجاز o———————×———————o إطناب

أول سؤال نسّاءله هنا هو أين نجد الإطناب والمساواة والإيجاز في البلاغة العربية ، هل هو في البديع أو البيان أو المعاني ؟ إنه في المعاني ، أو معاني النحو ، النحو العالي ، ليس النحو العادي ، أو قل : النحو البلاغي.

إذ من البداهة القول بأن ما سبق هو أول لبنة في التراكيب البلاغية ، هل المقام بحاجة إلى الاختصار والاختزال أم إلى الإسهاب والإطناب ، أم المساواة بين ما سبق.

يقول المراغي [1] : هذا الباب أساس في بنيان الفصاحة ، وركن ركين في تكوين ملكة البلاغة حتى قيل : (البلاغة الإيجاز والإطناب) أي أن نعرف لكل واحد منهما مقامه وسياقه.

أولا - الإيجاز :

اندراج المعاني المتكاثرة الكثيرة تحت اللفظ القليل ، أو هو التعبير عن المقصود بلفظ أقل من المتعارف ، وافٍ بالمراد لفائدة ، أي كون ما قيل مطابقا للحال ولا مبرر يقتضي العدول عما قيل ، ويمكن أن نعبر عن الإيجاز بهذا الشكل :

المعنى	←	اللفظ

أي لفظ قليل ومعنى كبير كثير ، وقدوتنا في هذا سيد العرب والعجم (١) الذي قال عن نفسه :

أوتيت جوامع الكلم

واختصر لي الكلام اختصارا

(1) علوم البلاغة ... ، ص١٦٦.

ومعنى جوامع الكلم الاختصار والإيجاز ، حتى اختصر لـه الكلام اختصارا ، فمن درر النبوة :

- (المعدة بيت الداء ، والحمية رأس الدواء ، وعودوا كل جسم ما اعتاد) وهذا الحديث جمع من الأسرار الطبية الشيء الكثير والمهم في حياتنا.
- (الطمع فقر ، واليأس غنى).

ومـن درر أمير المؤمنين (ﷺ) والـذي ربـي فـي بيـت النبـوة ، فاستقى مـن بلاغته (ﷺ) بلاغته التي عرفت عنه ، ومن دررها :

- ثمرة التفريط الندامة.
- لكل مقبل إدبار ، وما أدبر كان كأن لم يكن.
- من أحد سنان الغضب لله قوى على قتل أسد الباطل.

لكن الإيجاز في بلاغة بني يعرب له وسائل ، هي على ضربين :

١- إيجاز الحذف : هذا الحذف يتعرض له المفرد أو الجملة ، أو حتى عدة جمل ، كما يلي :

أ - حذف المفرد : وهو أوسع مجالا وحظوة من حذف الجملة ، إذ هو أكثر استعمالا ، وقد سبق في إحدى مواد دستور لغتنا أن العربية وضعت مبدأ مهما وركن ركينا هو (ما يفهم يحذف) وعليه فإنا نجد حذفا واسعا في عناصر الجملة ، مثل : (المسند - المسند إليه - المفعول - المضاف أو المضاف إليه - الموصوف أو الصفة - القسم أو جواب القسم - حذف الشرط أو جواب الشرط - حروف المعاني).

وهذي بضعة أمثلة على ما سبق :

- (يَخَافُونَ رَبَّهُم [1]) أي عذاب ربهم ، حذف المضاف.
- (وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ [2] أَتْرَابٌ) أي : حور قاصرات الطرف ، حذف الموصوف ، وأقام الصفة مكانها.

وهكذا تنحو عربيتنا نحو الإيجاز بآليات محددة وحذوفات بعينها ، وقد رأينا هذي الحذوفات للكلمة المفردة.

أما حذف الجملة أو الجمل ، فمنه :

- (فقلنا : اضرب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً [3] ...) تقدير الكلام ، فضرب موسى الحجر ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ، فحذفت جملة (فضرب موسى الحجر).
- وربما لا تحذف جملة واحدة فقط ، بل تحذف - أحيانا - عدة جمل ، في سورة يوسف [4] قال أحد زملاء يوسف في السجن ، والذي أفرج عنه مع زميل له، وقد فسر نبي الله يوسف (عليه السلام) للفتيين ما رأيا في المنام.

هذا الفتى تذكر أخيرا يوسف وما فسر لهما ، فاقترح - على استحياء - على الملك : (أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ۞ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا ...) وهنا حذفت عدة جمل ، تقدير الكلام : فأرسلوني إلى يوسف لأطلب منه تعبير رؤيا الملك ، فأرسلوه إليه في سجنه ، فأتاه فقال له يا يوسف .... كل هذا حذف من النص ، لإعطاء مزيد من الحركة.

---

(1) ٥٠ النحل.
(2) ٥٢ ص.
(3) ٦٠ البقرة.
(4) آية ٤٥ ، ٤٦.

وانظر - يا رعاك ربك - إلى العربية تحذف لكن ليس بدون برهان ودليل ، مرة أخرى - كما جاء في المادة السابقة - الدليل والبرهان ومنطقية الأشياء.

ففي علم البلاغة يتحدث البلاغيون عن أدلة الحذف ، وهي كثيرة كثيرة ، منها :

١- العقل الدال على المحذوف واقتران الكلام بالفعل الدال على تعيينه ، كما تقول للعروس : بالرفاء والبنين ، أي : أعرست بالرفاء والبنين.

٢- العقل الدال على المحذوف والشروع في الفعل الدال على تعيينه ، كما في : باسم [1] الله ، فإنك تقدر المتعلق ما جعلت التسمية مبدأ له ، نحو : آكل ، أو أشرب ، أو أسافر .... باسم الله.

٣- العقل الدال على المحذوف والعادة الدالة على تعيينه ، وهذا مثال طريف من سورة يوسف (عليه السلام) فقد جاء على لسان امرأة عزيز مصر : (فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ [2]) حيث لا معنى للوم على ذات الشخص - نبي الله يوسف - وإنما اللوم في شيء محذوف ، هو : في حبه ، إذ سبق قول النسوة في الحفل الذي أقامته زليخه : (قَدْ شَغَفَهَا [3] حُبًّا).

ويمكن أن يكون المحذوف : في مراودته ، لما سبق من قول النسوة أيضا (تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن [4] نَّفْسِهِ).

وبعد إيجاز الحذف يأتي :

---

(1) جدير ذكره يا عربي بني يعرب أن ألف الوصل لم تحذف هنا لأن البسملة ليست كاملة ، إذ تحذف في (بسم الله الرحمن الرحيم) ولا تنس يا عربي بني يعرب أن التسمية لو سبقت بشيء أو اتبعت بما يتعلق بها بقيت ألف الوصل ، كما في (أبدأ باسم الله الرحمن الرحيم - باسم الله الرحمن الرحيم نبدأ كلامنا) وهكذا.

(2) آية ٣٢.

(3 ، ٤) آية ٢٠.

٢- إيجاز القصر : ما تزيد فيه المعاني على الألفاظ الدالة عليها ، بلا حذف ، وللقرآن فيه المنزلة التي لا تسامي ، والغاية التي لا تدرك ، وعندنا منه أمثال عديدة عديدة :

- (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِيْ الأَلْبَابِ) ١٧٩ البقرة.
- (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) ١٩٩ الأعراف.
- (أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ) ٥٤ الأعراف.

كل آية مما سبق نكتب تحتها من الشروح والتعليقات والإضافات ما لا يحصى ولا ينعد ، ولعل القارئ لو رجع إلى أحد التفاسير أو بعض كتب البلاغة التي استشهدت بما سبق لعلم مصداق كل هذا [١].

وفي كلام سيد المرسلين أيضا ما لا يحصى من شواهد القصر :

- عن سفيان بن عبد الله الثقفي : يا رسول الله ، قل لي في الإسلام قولا ، لا أسأل عنه أحد غيرك ، قال (قل : آمنت بالله ، ثم استقم).

وبالفعل لا كلام ولا جواب بعد هذي العبارة النبوية.

وفي هدي المدرسة النبوية الراقية تربى الإمام علي (ﷺ) ففاه بكثير من الحكم التي جاءت من نهج بلاغة أخيه ، محمد (ﷺ) مثل :

- رب قول أنفذ من صول.
- إن المرء مخبوء تحت لسانه [٢].
- قال الإمام علي (ﷺ) تعقيبا على قول أحد الأعراب : اللهم هب لي حقك ، وأرض عني خلقك ، فقال أمير المؤمنين : هذا هو البلاغة !!.

---

(1) العجلوني : كشف الخفاي / ١٠١.
(2) نهج البلاغة ، طبعة دار الشعب بالقاهرة (ب ت) ص٤١٧.

ثانيا : المساواة :

التعبير عن المعنى المقصود بلفظ مساوٍ له ، بحيث لا يزيد أحدهما على الآخر بحيث لو نقص اللفظ تطرق الخرم والخلل إلى المعنى بمقدار ذياك النقصان.

وهذا ما يناسب الأسلوب العلمي الرياضي ، أو أسلوب العلم ، وعلى رأسها الرياضيات ، كما نقول : ١ + ١ = ٢ ، أو أ ب جـ د مربع ، أو كمال نقول في علم الأصوات : (الهمزة العربية صوت صامت مهموس جنجري انفجاري مرقق) هذي حقيقة علمية لا مراء فيها ، ولا جدال ، المعنى = اللفظ هنا ، لا يزيد ولا ينقص أحدهما عن الآخر.

وهذي أمثلة من القرآن الكريم ومن حديث سيد الأولين ، ثم من كلام اخيه ووصيه أمير المؤمنين (عليه السلام) :

- قال تعالى : (وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ [1] وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ).
- وفي الحديث الشريف : (الضعيف أمير الركب).
- وقال أمير المؤمنين : (عليكم بطاعة من لا تعذرون بجهالته ، قد بصرتم إن أبصرتم ، وهديتم إن اهتديتم).

ولا مشكلة ، ولا شية في المساواة ، عند استواء قدر المعنى بقدر اللفظ ، أو مساواة المعنى باللفظ ، وفي النهاية :

اللفظ = المعنى

(1) ٢٣٦ البقرة.

ثالثا : الإطناب :

زيادة اللفظ على المعنى لفائدة ، لاحظ - يا رعاك الله - أن الزيادة لفائدة ، ليست عبثا بلا هدف ولا فائدة.

فإن لم تك فائدة كان التطويل والحشو ، فما الفرق بينهما ؟

الأول - التطويل ، عندما لا تتعين الزيادة ، ولا تعرف ، مثل :

ألا حبذا هندا وأرضا بها هند وهند أتى من دونها النأي والبعد

فالنأي والبعد واحد ، أي في المعنى ، ولا يتعين أحدهما للزيادة ، أي لا يعرف ما هو الأصل ، وما هو الزائد ، فأيها الذي زاد ، أو جاء زيادة على المعنى ، دون فائدة.

الثاني - الحشو : وهو على ضربين ، هما :

أ - ما يفسد به المعنى : كقول أبي الطيب :

ولا فضل فيها للشجاعة والندى وصبر الفتى لولا لقاء شعوب

ب- ما لا يفسد المعنى : كقول أبي العيال الهذلي :

ذكرت أخي معاودني صداع الرأس والوصب

ويكثر الحشو بلفظ (أصبح وأمسى وعدا وإلا وقد واليوم ولعمري و يا صاحبي) أو : يا صاح ، أو صاح ... قال أبو تمام :

أقرّوا - لعمري - بحكم السيوف وكانت أحق بفصل القضا

وقال البحتري :

ما أحسن الأيام إلا أنها - يا صاحبي - إذا مضت لم ترجع

والداعي إلى ما سبق ، أي إلى الزيادة التي لا تفسد المعنى أو الحشو هو إما إصلاح الوزن ، أو تناسب القوافي ، وحروف الروي ، أو قصد السجع في النثر ، أو هي نوع من الزينة و (الديكور) لإيجاد التوازن أو استقامة الوزن و(الإيقاع) في الكلام ، كما يفعل بعض الخطاطين ، في زيادات على الخط المكتوب المرقوم لخلق نوع من التوازن والتوازي فيما يكتبون ، وتخطه أيمانهم.

وفي الخلاصة فإن الإطناب له وسائل ، أو خريطة طريق ، أي عندما تكون الزيادة لفائدة ، كيف ؟ للإطناب وسائل شتى منها :

١- الإيضاح بعد الإبهام : كي يظهر المعنى في صورتين مختلفتين ، وليتمكن في النفس أفضل تمكن ، فإن الكلام إذا قرع السمع على جهة الإبهام ، ذهب السامع فيه ـ بخياله ـ كل مذهب تماما كما يحدث للعمل الدرامي ، إن جاء في إذاعة مسموعة جنح خيال المستمع وطار إلى آفاق واسعة ، لا تحدها الصورة المرئية إن عرض نفس المشهد على الشاشة المرئية ، وهكذا.

وهكذا ؛ إن المعنى إن عرض بصورة مبهمة أفاد من إبهام الصورة ، فإن أتبع هذا الإبهام بإيضاح بعد إبهام فإن المعنى يزداد تمكنا في النفس ، ويأتي الإحساس والشعور به أتم وأكمل.

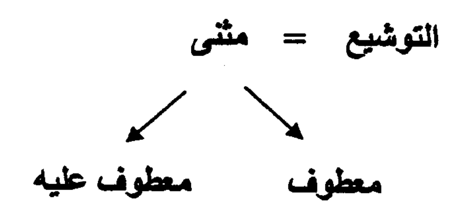
قال تعالى : (وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ [1] الأَمْرَ) أي أمر ، ما هو هذا الأمر ؟ هذا نوع من الإبهام ، يأتي عقيبة الإيضاح : الأمر (أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين).

ووجه الحسن في هذا النوع الكلام ، هو التوازن بين الإيجاز والإبهام من جهة وبين الإطناب بعد الإيجاز ، هناك أمر ما ـ مثلا ـ يليه إيضاح مفصل مطنب ، هو أن

(1) ٦٦ الحجر.

دابر هؤلاء مقطوع في الصباح ، وهلم جرا.

٢- <u>التوشيع</u> : أن يؤتي بمثنى في صدر الكلام ، يفسره بعده - أو يفسراه - اسمان متعاطفان ، معطوف ومعطوف عليه ، في الحديث الشريف : (خصلتان لا تجتمعان في مؤمن ، البخل وسوء الخلق).



٣- <u>ذكر الخاص بعد العام</u> : إشارة إلى ما له من المزية والفضل (مَن كَانَ عَدُوّاً لِّلّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ [١] وَمِيكَالَ ...) ذكر القرآن جبرائيل وميكائيل مع دخولهما في الملائكة - عموما - للتنبيه على زيادة فضلهما.

٤- <u>التكرير</u> : وقد جاء في القرآن وكلام العرب منه شيء كثير ، وأمثلة متكررة :

أ - (كَلا سَيَعْلَمُونَ ۞ ثُمَّ كَلا سَيَعْلَمُونَ [٢]) نوع من التوكيد.

ب- (وَقَالَ الَّذِي آمَنَ : يَا قَوْمِ ، اتَّبِعُونِ ، أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ۞ يَا قَوْمِ ...) [٣]

كرر (يا قوم) مضافا إلى ياء المتكلم بعدا للقائل - مؤمن آل فرعون - عن التهم في النصح لقومه ، إذ لا يريد لقومه إلا ما يريد لنفسه هو.

جـ- (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) تكرر هذا في سورة الرحمن كثيرا بسبب كثرة ما أنعم الله على عباده من آلاء.

---

(1) ٩٨ البقرة.
(2) ٤ ، ٥٠ النبأ.
(3) ٣٨ ، ٣٩ غافر.

٥- الإيغال : ختم البيت - أو الآية - أو غيرهما بما يحقق نكتة ، يمكن أن يتم دون التصريح بهذي النكتة أو ذكرها :

أ - وإن صخرا لتأتم الهداة به   كأنه علم في رأسه نار

في قول الخنساء مبالغة وتوكيد ؟ جملة (في رأسه نار) من الإيغال الحسن ، إن الشاعرة خُناس لم تكتف بأن تشبه أخاها بالعلم - بفتح العين واللام - الجبل المرتفع المشهور بهداية وتنوير السائرين والسّارين ، لكنها أضافت أيضا النار في رأس هذا العلم لما في هذا من زيادة الظهور والانكشاف ووضوح الرؤية.

ب- (اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم [١] مُّهْتَدُونَ) بطبيعة الحال لا أحد يشكك ، أو يشك في أن رسل الله مهتدون ، والمعنى يتم ويكمل دون التصريح بهدايتهم إلا أن في هذا الذكر حث وترغيب على إتباع الرسل.

٦- التذييل : أن تأتي جملة مستقلة عقب جملة تشتمل على معناها للتوكيد ، وهو أعم من الإيغال في أنه يكون في الآخر وغيره ، وأخص في أن الإيغال قد يكون بغير الجملة ولغير التوكيد ، على أي الأحوال فالتذييل على ضربين :

أ - أن يخرج مخرج المثل ، بأن يكون في الجملة الثانية حكم كلي منفصل عما قبله ، يجري مجرى الأمثال في فشو الاستعمال : (وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ [٢] زَهُوقاً) (جاء الحق) + (وزهق الباطل).

ب- أن لا يخرج مخرج المثل ، وفي ذات الوقت لا يستقل بالفائدة دون ما قبله (ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلا الْكَفُورَ [٣]).

---

(1) ٢١ يس.
(2) ٨١ الإسراء.
(3) ٧ سبأ.

٧- التكميل : ويسمى أيضا الاحتراس ، وهو أن يؤتى في الكلام بما يدفع ما يتوهم ، أو يتوهمه السامع (فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى [1] الْكَافِرِينَ) إذ لو اقتصر على وصفهم بالذلة على المؤمنين لتوهم سامع أن هذا ناشئ من ضعف ، فدفع هذا التوهم بجملة (أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ).

٨- التتميم : أن يؤتي بفضلة كمفعول أو حال أو نحو ذلك قصد المبالغة ، يحاول المتكلم أن لا يدع شيا - شيئا - يتم به المعنى ويكمل ويجمل.

قال زهير يمدح هرم بن سنان :

من يلق يوما - على علاته - هرما

يلق السماحة منه والندى خلقا

فقول الشاعر (على علاته) يعني : على كل حال ، أو على ما فيه من الأحوال والشئون - هذا - تتميم وقع في غاية الحسن والرشاقة.

٩- الاعتراض : وهو أن يؤتي في أثناء الكلام - في وسطه وسوائه أو بين كلامين متصلين في المعنى ، أن يؤتي بجملة أو أكثر ، لا محل لها من الإعراب ، وذلك لسبب - نكتة - ليست دفع الإيهام وهو من دقائق البلاغة وساحر البيان وفائقة ، ويهدف الاعتراض إلى أغراض وفوائد شتى ، منها :

أ - التنزيه : والتعظيم (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ [2] الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ) فسبحانه جملة اعتراضية ، هو جملة لأنه مصدر بتقدير الفعل ، أي أن سبحانه = أسبحه ، وأنزهه عن اتخاذ البنات - فضلا عن غيرهن - وهكذا.

(1) ٥٤ المائدة.
(2) ٥٧ النحل.

كما تجدر الإشارة إلى أن تعبير (جملة اعتراضية أو معترضة ، إنه مصطلح نحوي إعرابي ، حيث إن هذي الجمل لا محل لها من الإعراب ، لكن حقها ودورها في المعنى والدلالة محفوظ موكد.

ب- الدعاء : كقول المتنبي ...

ويحتقر الدنيا احتقار مجرب   يرى كل ما فيها - وحاشاك - فانيا

فقوله (وحاشاك) اعتراض حسن في موضعه ، والواو في مثله اعتراضية ، ليست عاطفة ولا حالية.

والآن مع البلاغيين يتساءلون مقارنين بين الإيجار وبين الإطناب ، إذ المساواة لا شية ، ولا شيَ - شيء - فيها ، إنها الأصل والأساس والمعتاد ، فإن خرجنا عنها كان الإيجاز أو الإطناب.

وهنا نجد من مال إلى الإيجاز وفضله ، فالبلاغة الإيجاز ، ومن البلاغيين من نحا ومال نحو الإطناب ، ولكن الحق والعدل القول بأن الحاجة إلى كليهما ماسة ، وأن لكل موضعه وموقعه ، فمن استخدام أحدهما في موقع الآخر كان مخطئا ، ولا شك.

ولكن البلاغيين استحبوا الإيجاز في المواضع الآتية :

١- الكتب الصادرة عن الملوك إلى الولاة والمرءوسين في أوقات الحروب والأزمات ، وكذا الأوامر والنواهي من الحكام والرؤساء.

٢- الوعد والوعيد.

٣- الشكر والامتنان.

٤- الاعتذار.

واستحسن البلاغيون البسط والإطناب في مثل :

١- المدح والثناء والهجاء والفخر.

٢- الخطب في الصلح بين الناس وإصلاح ذات البين.

٣- الوعظ والإرشاد.

فما دواعي وموجبات الإيجاز ، وفوائده ؟ :

١- سهولة الحفظ.

٢- ضيق المقام.

٣- ذكاء المخاطب الذي تكفيه الإشارة واللمحة.

فما دواعي الإطناب وفوائده ؟

١- توكيد المعنى - في النفس - وتثبيته.

٢- دفع اللبس.

٣- التعظيم والتهويل [1].

على أي الأحوال فإن الحياة تقتضي أحيانا الإيجار والاختصار والاختزال ، والإشارة بدل العبارة ، في حين تجد الأمور تقضي وتفرض وتنحو نحو الإطناب والإسهاب والشرح والإيضاح ، بل المبالغة والزيادة في ذياك الشرح ، وذاك الإيضاح.

خذ على سبيل ما ذكر البلاغيون من مواضع الإطناب ، ومنه الخطب والكلام في الصلح بين الناس لإصلاح ذات البين ، إن إصلاح ذات بيننا والصلح فيما بيننا يحتاج إلى كلام كثير ووجع (راس) لذا فإن رسول الله (ﷺ) يقدم لك ملمحا مهما ، هو : ما هو جزاء المصالح بين الناس ، الساعي لإصلاح ذات بينهم ؟ شيء عجيب

(1) المراغي ، علوم البلاغة ، ص١٨٢ وقبلها.

أن ثواب إصلاح ذات البين أو المصلح بين الناس هو ـ كما أخبر الصادق المصدوق ـ له بكل كلمة يقولها عتق رقبة ، أي ثواب عتق رقبة.

وهنا نكتب الملاحظ الآتية :

١- إن عتق الرقاب لم يعد متاحا الآن ، ولذا فإن هذا الثواب لا سبيل إليه الآن.

٢- إن جلسات الصلح والتصالح تطول ساعات وليالي وأياما ، وأياما وليالي ، يحتاج إلى كلام كثير وكثير ، بإسهاب وإطناب.

قدرت مرة أن الإنسان في ساعة واحدة ـ ٦٠ دقيقة ـ يمكن أن يتكلم خمسة آلاف كلمة ، فإذا تحاور بضعة أشخاص ٤ ـ ٥ مثلا ، فإن كل واحد منهما يمكن أن يفوه بألف كلمة في جلسة لمدة ساعة ، تصوروا في جلسة كهذه يفوز المرء بثواب عتق ألف رقبة ، وممن ؟ من رب السماوات والأرضين ، صاحب الخزائن التي لا تنعد ، وصاحب : كن فيكون.

وأختم ما سبق باقتباس من كتاب مهم (البرمجة [1] اللغوية العصبية ...)إذ جاء فيه : (في بعض المواقف نحتاج إلى مزيد من المعلومات ن وهذا يعتمد على الغرض من الاتصال) أي من الكلام الذي يقال (وفي أحيان أخرى نلجأ إلى استخدام الاختزال ... وهذه الاختصارات تأخذ شكل التعميمات أو المعلومات المحذوفة ، أو إسقاط بعض المعاني).

الموقف هو الذي يفرض الاختزال ، أو العكس ـ البسط والإطناب ، ومزيد من المعلومات.

(1) تأليف هاري ألدرو بيرل هيذر ، ترجمة مكتبة جرير ، الرياض ٢٠٠٣ ، ص١٦٥ ، ١٦٦.

الفهرس

الفهرس